حسين باقر

قضايا إسلامية معاصرة

قيادة المسيرة

في رؤية الإمام السجاد (ع)

دار الهادي



قيادة المسيرة
في رؤية الإمام السجاد

الطَبعَة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م



هاتف: ٠١/٥٥٠٤٨٧ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

قضايا اسلامية معاصرة

قيادة المسيرة في رؤية الإمام السجاد

حسين باقر



للطباعة والنشر والتوزيع

مقدمة المحرر

ظلت الكتابات التي تتناول حياة أهل البيت عليهم السلام تستند إلى السرد التاريخي لسيرتهم الشريفة، وتتحدث عن مناقبهم والمأساة التي ختمت بها حياتهم، أما ودرهم في حياة الأمة وطبيعة مهماتهم العظمى في حفظ الرسالة والإشراف على المسيرة الإسلامية، فلم تتجلَّ بوضوح في دراسات تحليلية، تستقرئ مواقفهم، وتستوحي دلالاتها، والإطار العام الذي تنتظم به.

لكن العصر الحديث شهد ولادة اتجاه جديد في دراسة فلسفة سيرة أهل البيت عليهم السلام، واكتشاف مغزى أعمالهم، وبيان الأبعاد المشتركة التي تتوحّد فيها هذه الأعمال.

ويعدُّ كتاب الشيخ راضي آل ياسين «صلح الحسن» الذي نشره سنة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٢م أول كتاب يتجاوز منهج السرد التاريخي الموروث عبر قرون في الآثار السابقة، وينهج منهجاً تحليلياً، يحاكم فيه الوثائق التاريخية، ويفكك المعطيات المتنوعة التي تناقلتها المصادر القديمة، ثم يغربلها ويمحصها، ويعيد تركيبها، في ضوء رؤية لا تحمل الظروف السياسية والاجتماعية والنفسية ومجمل العناصر الزمانية والمكانية التي تمخض عنها الصلح وما استتبعه من نتائج، وموقع الصلح في سياق المواقف التالية للأئمة، وأثره في التمهيد لثورة الإمام الحسين عليه السلام خاصة.

وبعد مضي أكثر من عقد من الزمان صاغ السيد الشهيد محمد باقر الصدر الأُسس المنهجية لهذا الاتجاه عبر محاضرة قدمها في الجلسة الخامسة للموسم الثقافي الأول لجمعية الرابطة الأدبية في النجف الأشرف في سنة ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦م، بعنوان «دور الأئمة في الحياة الإسلامية». وشدَّد على أن هذا الاتجاه يتناول حياة كل إمام ويدرس تاريخه على أساس النظرة الكلية بدلاً من النظرة التجزيئية، بمعنى أنه ينظر إلى الأئمة ككل مترابط، ويدرس هذا الكل، وتُكتشف ملامحه العامة، وأهدافه المشتركة، ومزاجه الأصيل، ويفهم الترابط بين خطواته، وبالتالي الدور الذي مارسه الأئمة جميعاً في الحياة الإسلامية.

ويشير الشهيد الصدر إلى النتائج التي تتحقق من خلال اكتشاف الخصائص العامة والدور المشترك للأئمة ككل، فيؤكد على أن ما يبدو لنا من اختلافات وتناقضات في بعض المواقف ستزول وقتئذٍ، لأن تلك المواقف ليست إلاّ تجليات مختلفة عن حقيقة واحدة، وإنما اختلف التعبير عنها وفقاً لاختلاف الظروف والملابسات التي مر بها كل إمام وعاشتها القضية الإسلامية والشيعية في عصره عن الظروف والملابسات التي مرت بها الرسالة في عهد إمام آخر.

وتتنوع المبررات التي يسوقها الشهيد الصدر لتسويغ تبنى هذا الاتجاه في دراسة حياة الأئمة عليهم السلام، فلا يتوقف عند المبررات التاريخية، بل يجد العقيدة نفسها وفكرة الإمامة بالذات تفرض ذلك، لأن الإمامة واحدة في الجميع بمسؤولياتها وشروطها، فيجب أن تنعكس انعكاساً واحداً في سلوك الأئمة وأدوارهم، مهما اختلفت ألوانها الظاهرية، بسبب الظروف والملابسات، ويجب أن يشكل الأئمة بمجموعهم وحدة مترابطة الأجزاء، يواصل كل جزء في تلك الوحدة الجزء الآخر ويكمله.

بعد ذلك بمدة وجيزة باشر الشهيد الصدر تدشين دراسة الاتجاه الترابطي في مواقف الأئمة عليهم السلام في محاضرات كان يلقيها على نخبة من تلامذته، ويعالج فيها الظواهر المتنوعة في سيرة الأئمة، ويكشف عن المنطق

الترابطي الذي تتكامل في إطاره مواقفهم عليهم السلام، في حلقات منتظمة يمهّد السابق منها لما يليه، ويشترك كل منهما في محتواه وحقيقته، وأن تبدى بصورة مغايرة عن الموقف الآخر.

وما لبثت هذه المحاضرات سوى مدة قليلة حتى شاعت بين طائفة من تلامذة الشهيد الصدر ومريديه، فترسم منهجه تلميذه الشيخ محمد علي التسخيري في سلسلة مقالات نشرها في مجلة الهادي الصادرة في قم مطلع السبعينات، تناول فيها المنهج الشمولي ـ حسب اصطلاحه ـ في دراسة حياة أهل البيت عليهم السلام، ثم أعاد نشرها في كتاب «من حياة أهل البيت» سنة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م في بيروت، وقارن نشرها صدور كتاب «الأئمة الإثنا عشر: دراسة تحليلية» للأخ الأستاذ عادل الأديب في بيروت أيضاً، والذي هو مستخلص مكثف لمنهج الشهيد الصدر وتطبيقاته في دراسة حياة الأئمة.

كذلك تزامن مع صدور كتابي الشيخ التسخيري والأستاذ الأديب في السنة نفسها ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م طبع كتاب الأخ الشيخ حسين باقر «الإمام السجاد» في بغداد، غير أن الوضع الأمني الحسّاس آنذاك في العراق حال دون نشر هذا الكتاب وتوزيعه بين القراء، إلاّ في مساحة محدودة، فلم يجر تعريف به يتناسب وما ينطوي عليه من أهمية بالغة، لأنه واحد من ثلاثة أعمال استلهمت المنهج الذي صاغ ملامحه الشهيد الصدر، مضافاً إلى أن محاولة الشيخ حسين باقر في هذا الكتاب توغلت عمودياً وامتدت أفقياً في دراسة حياة الإمام السجاد عليه السلام وتحليل مواقفه، في ضوء ما أسّسه الشهيد الصدر، فكشفت عن أبعاد عميقة فيما نراه من ظواهر وأعمال اتسمت بها سيرة الإمام عليه السلام.

وأتذكر يوم صدر كتاب «الإمام السجاد» أهداني الأخ المؤلف نسخة منه، وحين بدأت مطالعته وجدته يطبق منهجاً مختلفاً في دراسة وتحليل ظواهر، كالبكاء، والعبادة، والإعتاق، والإنفاق، في حياة الإمام السجاد عليه السلام، تلك الظواهر التي ظلت المؤلفات السابقة تكررها وتطفو عند سطحها، من دون

أن تغور في آفاقها وتقف على فلسفتها الحقيقية، وصلتها بدور الإمام في الحية الإسلامية.

لقد كشف المؤلف عن نوعين من المواقف للإمام عليه السلام، الأول منها ما يشترك فيه مع باقي الأئمة، وتتلخص المواقف المشتركة في حماية الرسالة الإسلامية بالوقوف أمام محاولات التحريف والاستغلال من قبل الحكام المنحرفين والعلماء المزيفين والرواة الكذابين والمأجورين، وحماية الأمة ببناء قاعدتها الفكرية وتوضيح معالم دينها الحنيف وتعميقه في نفوس أبنائها، وكذلك حماية الفرد المسلم برسم الصورة المثالية للحياة الإسلامية وإبراز المواقف النموذجية للمسلم في كافة نواحي الحياة وصعوباتها ومحنها.

أما النوع الثاني من المواقف فهو ما ينفرد به الإمام، تبعاً للمرحلة التي يعيشها وما يكتنفها من واقع سياسي وتيارات فكرية وظواهر اجتماعية متنوعة، فتتنوع مواقفه حيال هذه المرحلة، وتبدو في حياته بعض المواقف والظواهر التي تستدعيها الظروف المعاصرة له، وتتطلبها أهداف مرحلية خاصة به، كظاهرة بكاء الإمام السجاد على أبيه الحسين عليهما السلام، وظاهرة الإعتاق التي امتاز بها عن باقي الأئمة.

ولكي يتجلى بوضوح دور الإمام وأثره في صيانة الرسالة وترشيد وعي الأمة وتسديدها، ينبغي أن نفرز بدقة المواقف المرحلية الخاصة بعصره، والمواقف المشتركة العامة التي تبرز في حياة الأئمة على الدوام، فإن ما تمنى به بعض الكتابات من تفسير خاطئ لمواقف الإمام، إنما ينشأ من عدم تحديد طبيعة عصره وما يسوده من تيارات وحوادث وأفكار، لأن عدم الإحاطة بالظرف المعاصر للإمام يؤدي إلى وقوع التباس في فهم مواقفه، وتخبط في تفسير الظواهر الخاصة التي تبرز في حياته وسلوكه وصلتها بعصره.

ويجيء هذا البحث الذي نقدمه للقرّاء في سلسلة «كتاب قضايا إسلامية معاصرة» كمحاولة لتعميم وعي تاريخي سليم بحياة الأئمة ودورهم في الحياة

الاجتماعية والسياسية للأمة، وبيان المراحل التي تبلورت عبر أعمالهم حسب تحليل المؤلف، وتحديد معالم كل واحدة من هذه المراحل، وما يصطبغ به العصر من ظواهر، تتطلب خوض الصراع السياسي، كما اتسمت به المرحلة الأولى، التي ركز الأئمة فيها على كشف مروق الحكام، وتوضيح انحرافهم عن الإسلام، بينما عمل الأئمة في مرحلة لاحقة على حماية الشريعة ومقامة الانحراف الذي أشاعه فقهاء البلاط والعلماء المنحرفون، والتصدي لمحاولات تزوير الدين والعبث بأحكامه، أما المرحلة الأخيرة فاتَّجه العمل فيها صوب تجسيد الدين في الحياة، وتطبيق أحكامه، وهي المرحلة التي صنفها الكاتب كحلقة أخيرة في المسيرة الإسلامية.

وتهدف مجلة قضايا إسلامية معاصرة أن يساهم نشر هذا الكتاب في تنمية الدراسات التحليلية لحياة أهل البيت عليهم السلام، والإفصاح عن منهجهم في تربية الأمة، وبناء الجماعة الصالحة، وإصلاح الانحراف، ومقاومة سلاطين الجور، وصيانة الرسالة من كل تشويه وتحريف.

بقي أن نذكّر القراء أن هذا البحث يمثل القسم الثالث من دراسة وافية للكاتب تناول في القسمين الأول والثاني منها المحيط الاجتماعي والثقافي والسياسي، الذي عاصره الإمام السجاد عليه السلام، فيما تمحور حديثه في القسم الثالث حول أهداف الإمام والوسائل التي استخدمها لتحقيق تلك الأهداف ومدى نجاحه في ذلك، من خلال محاولة تحليلية لاكتشاف دور الإمام في الحياة الإسلامية.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

عبد الجبار الرفاعي

مقدمة المؤلف

أقدم لك قارئي العزيز هذا البحث الذي يدور حول الإمام الرابع علي بن الحسين عليه السلام راجياً منك تقبله وتقييمه من جميع جوانبه، وهو جهد حاولت فيه التوصل لفهم أحوال الإمام ومواقفه وتفسيرها حسب معتقداتنا فيه.

فهذا الكتاب لم يتناول إمامنا كما تناولته باقي الكتب التاريخية ولم يستعرض حياته وأحواله، ولا تطرق إلى أولاده أو مناقبه ووفاته، وإنما يبحث عن الامام ودوره لا عن شخصيته وحياته، ولذلك فهو لا يناسب إلاّ أولئك الذين اتخذوه إماماً وقدوة وفرغوا من مسألة عصمته وقيادته للأمة، ويحاولون التعرف على كيفية أدائه لمسؤولياته.

ونشير هنا إلى أن استيعاب بعض جوانب هذا البحث يتوقف على الإحاطة بالعصر الذي عاشه الإمام والظروف الاجتماعية والسياسية التي أحاطت به، وقد تكفل بحث سابق مسؤولية هذا الجانب، بالإضافة إلى توضيح بعض الحقائق المهمة التي كانت تعيشها الأمة آنذاك.

ولابد هنا من أن أبين أن هذا البحث لم يستوف عمل الإمام، وأجد كثيراً من الجوانب المهمة في حياته لم أتناولها بالدراسة ولم أتطرق إليها أثناء البحث، وأرجو أن يكون هذا الكتاب بهذه الصورة وبما فيه من غفلات ونقص دافعاً للآخرين ومحفزاً لهم للكتابة في موضوعه بشمول أوسع وبصورة أدق.

حسين باقر



الفصل الأول

دور الأئمة في التاريخ

تبدأ المسيرة الربانية في هذه البشرية يوم جعل آدم نبياً في هذه الأرض، وتتكامل المسيرة على مرِّ الأيام وتعاقب الأجيال على يد الأنبياء المبعوثين والأوصياء التابعين لهم طبقاً للمنهج الإلهي لهذه الأرض المباركة وتظافر جهود الأنبياء واحداً بعد واحد وتترابط حلقات عملهم ويبعث النبي محمد صلى الله عليه وآله الذي تتوج به المسيرة الربانية وتنفتح آفاقها على مرحلة جديدة يمثلها عمل خاتم الأنبياء الرسول صلى الله وعليه وآله والأئمة عليهم السلام من بعده.

فالمسيرة الإسلامية التي تبدأ يوم بعثة النبي صلى الله عليه وآله ما هي إلا حلقة أخيرة من حلقات المسيرة الربانية، التي رسمت للأرض ومن عليها ولم تكن بعثته إلا فاتحه للمسيرة الإسلامية واللبنة الأولى من صرحها الشامخ، وكان على الأئمة عليهم السلام من بعده أن يكملوا ذلك البناء الشامخ ويقودوا تلك المسيرة حسب منهج السماء.

وانتهت مهمة النبي صلى الله عليه وآله في الأرض بوفاته، ولكن مهمة الإسلام لم تنته، ونُصِّبَ الأئمة المعصومون عليهم السلام من بعد النبي صلى الله عليه وآله لإكمال هذه المهمة وإنجازها.

فمهمة الأئمة عليهم السلام ليست أمراً منفصلاً عن المسيرة النبوية على هذه الأرض ودورهم في التاريخ ما هو إلا عملية مكملة لمهمة الأنبياء.

ومفهوم الإمامة جزء تابع وضروري لمفهوم النبوة، والإيمان الصحيح بمنهج السماء وبرسالة الإسلام لا يكتمل إلا بالإيمان بالإمامة على أنها جزء مرتبط بالنبوة، تماماً مثلما لا يكتمل الإيمان بالتوحيد إلا بالإيمان بالنبوة فالإيمان بالتوحيد وحده إيمان ناقص والإيمان بالنبوة وحدها إسلام ناقص[١].

---

١ . ما جاء عن الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام): (إن الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين صلاح الدنيا وعز المزمنين، الإمامة نشر الإسلام الزاكي وفرعه بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، وتوفير الفيء والصدقات وإفضاء الحدود ومنع الثغور والأطراف(إكمال الدين ص٦٣٤).

ولما كانت المسيرة الربانية المتمثلة بعمل الأنبياء والأئمة عليهم السلام هي المنهج الإلهي الذي وضع للأرض[2] فلا بد من أن تكون فصولها مترابطة منسجمة وكذلك لابد أن تكون مسيرتها متظافرة متصاعدة على الدوام فكيف لا وهي جزء من هذا الكون المترابط وحسبك من نجاحها وتظافرها أن يقودها الأنبياء والأئمة المعصومون ويحرص عليها الموحدون المخلصون.

فالعنصران المهمان اللذان يمكن الجزم بهما في هذه المسيرة هما:

١. الترابط في الأدوار الذي يستدعي المرحلية في الأعمال والاشتراك في المهمات، أي أن للأنبياء دورهم المشترك كما أن للأئمة دورهم المشترك أيضاً.

٢. التظافر في النمو والمسيرة المتصاعد والنجاح المستمر في هذه المسيرة المباركة يعني كلما مرت الأيام كلما أشرفت المسيرة على الكمال وقربت ساعة إنجاز البناء.

ولمّا كان موضوع بحثنا عن أحد الأئمة المعصومين، فلابد من الإشارة إلى الخطوط الرئيسية للمسيرة الإسلامية والتي يمثّل الإمام السجاد (عليه السلام) أحد المنصّبين لقيادتها، وكذلك لابد من معرفة الدور المشترك للأئمة عليهم السلام والمرحلة العملية لهم عليهم السلام في الفترة المعاصرة للإمام زين العابدين وذلك لكي نستطلع دور الإمام، ونتعرف على المهمات التي كانت ملقاة على عاتقه، والأهداف التي ابتغى تحقيقها ونتفهم الأعمال والممارسات التي كان يقوم بها لتحقيق ذلك.

فقد كانت مهمة النبي صلى الله عليه وآله تتركز في أداء عملية التبليغ الواسع لهذا الدين وتوسيع دائرة هذا التبليغ أفقياً حتى يشمل أكبر عدد ممكن من الناس وأوسع رقعة من الأرض، وتأسيس الدولة وبعث الرسائل والحملات

---

٢ ـ ما يدل على وجود هذا المنهج الإلهي ما جاء في روايات أهل البيت (عليهم السلام) وخصوصا عن الإمام الصادق (عليه السلام) من أن الله أنزل كتابا للنبي فيه عمل كل إمام وموقفه وأن كل إمام كان يدفعه إلى من بعده، راجع إكمال الدين طبعة النجف ١٩٧٠ ص ٦٢٧.

العسكرية، وقبول إسلام المنافقين والمنتفعين، وفتح المجالات أمام الكفوئين لأداء مهمات الدولة الجديدة من دون التدقيق في إيمانهم وحسن إسلامهم، كل ذلك من أجل خدمة مهمته الرئيسية وهي التبليغ، وتحقيقاً لأهدافه في توسيع رقعة الإسلام أفقياً، ومحاولاً بذلك إنزال أحكام الرسالة إلى الواقع الحياتي وضبط المجتمع بالآداب والأعراف الشرعية، وقد حرص النبي صلى الله عليه وآله على أن يجسّد الإسلام في الأمة في جميع المجالات الاجتماعية والسياسية والروحية من أجل أن يضع لبنات البناء الرسالي. وتكمل على يده علمية التبليغ في الأمة.

ولم ينتقل الرسول صلى الله عليه وآله إلى جوار ربه إلى بعد أن تمت مهمته وتبلغت الأمة برسالة الإسلام وعرفت جوهرها وانضبطت بروابط الدين الجديد وأحكامه[٣] (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي...) ولكن الشيء المهم أن الأمة لم يتغلغل الإسلام في أعماقها بعد، ولم تتفهم أبعاد أحكامه فضلاً عن جهلها بمعظم الأحكام، وكان لقربها بعهد الجاهلية ووجود النسبة الكبيرة ممن دخلوا الإسلام بمداخل غير سليمة أو غير صحيحة، كلها تشكل بذور خطر في هذه الأمة متمثلاً في انحرافها عن الدين خصوصاً إذا علمنا خصوصيتين كانتا آنذاك هما:

أولاً: أن الأمة غير قادرة على أن تشخص مظاهر الانحراف عن هذا الدين وهي بعد عاجزة عن مقاومة هذا الانحراف.

---

٣ ـ جاء في كلمات الإمام الرضا (عليه السلام) إن الله لم يقبض نبيه صلى الله عليه وآله حتى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فيه تفصيل كل شيء يبين فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام وجميع ما يحتاج إليه الناس.

ولم يمض (صلى الله عليه وآله) حتى بين لأمته معالم دينهم وأوضح لأمته معالم دينهم، وأوضح لهم سبيلهم، وتركهم على قصد الحق وأقام لهم عليا (عليه السلام) علما وإماما ولم يترك شيئا تحتاج إليه الأمة إلا بيّنه فمن زعم أن الله عز وجل لم يكمل دينه فقد رد كتاب الله ومن رد كتاب الله عز وجل فهو كافر.

ثانياً: وجود المنافقين والمنتفعين الذي يريدون أن يتجهوا بالأمة الاتجاه الذي يحقق منافعهم الشخصية ومطامعهم الخاصة.

وعلى ذلك فقد تركّزت مهمة الأئمة عليهم السلام بعد الرسول صلى الله عليه في تفهيم الإسلام للأمة وتعميق جذوره في نفوسهم حتى تعرف الأمة دينها وتتمسك به وتقاوم في الوقت نفسه الانحراف وتتصدى له حال نشوئة.

وعلى ضوء هاتين الخاصتين سيقع الانحراف تلقائياً في موضعين:

١. انحراف بالحكم، ويعني سلب الخلافة واغتصابها من الحكام الشرعيين (الأئمة).

٢. انحراف في جسم الأمة ومبادئها وهذا الأمر تولاه الرواة الكذابون والعملاء المأجورون والفقهاء الرسميون.

وواجه الإسلام خطراً كبيراً بعد وفاة الرسول وسلب الخلافة وانحراف الحكم، ويتشخص هذا الخطر في أن الأمة كانت تنظر لمنصب رسول الله نظرتها لرسول الله (صلى الله عليه وآله) فهي ترى في (الخليفة) ما تراه في (الرسول) نفسه فتسمع منه وتطيع أمره وتأخذ دينها منه وتقبل آراءه واجتهاداته وتمتثل وتستن بسيرته[٤].

فركز الأئمة على موضع الخطر هذا وأخذوا يعملون ليتضح الفرق بين الحكام الشرعيين والحكام القائمين، وكان هدفهم كشف زيف الحكام أمام الأمة، وتوضحي انحرافهم عن الإسلام، وكان الصراع السياسي الذي يمارسه الأئمة الثلاثة الأوائل والذي انتهى بمجزرة الطف نهاية المرحلة الأولى من عمل

---

٤ . مما يوضح هذه النظرة أحداث تاريخية كثيرة منها ما طلبه عبد الرحمن بن عوف من الإمام علي عليه السلام في قصة الشورى على السير على كتاب الله وسنة النبي وسيرة أبي بكر وعمر. راجع الطبري.

الأئمة عليهم السلام[5]، والذي تجلى فيها فصل السلطة الزمنية الحاكمة عن منصب الخلفاء الرساليين وتعرية انحراف الحكام عن رسالة الإسلام.

وكان من مؤشرات نجاح المرحلة الأولى أن تركز في ذهن شطر كبير من أبناء الأمة ابتعاد السلطة عن الإسلام وخطأ التلقي من الخليفة مثلما كانت عليه يوم توفي الرسول، وأخذت الأمة تتحسس نوعين من الحكام: حكاماً منحرفين وهم الذي سلبوا الحكم وغصبوا الخلافة، وحكاماً رساليين تتمثل فيهم طهارة الإسلام وعدله كما لمسوا ذلك في تجربة حكم الإمام علي وولده عليهم السلام.

وأصبحت الأمة أو قطاع كبير منها يرقب غلبتهم وينتظر حكمهم ويعقد آمالاً على توليهم الخلافة، ونشأت جرّاء ذلك ثلة كبيرة من الناس ممن توالي الأئمة وتتشيع لهم وتؤمن بخطهم. وعليه فإن صراع الأئمة السياسي في المرحلة الأولى كان لخدمة تلك الأهداف السالفة الذكر والتي تحققت بجهودهم المتواصلة، ولم يكن من أجل إرساء دولة الإسلام العظمى لأنهم يعلمون أن دولتهم آخر الدول عند اكتمال مراحل عملهم كما صرح بذلك النبي وأكد الأئمة عليهم السلام. والمرحلة الثانية التي بدأها الإمام الرابع زين العابدين عليه السلام تتركز فيها مهمة الأئمة عليهم السلام على حماية الشريعة ومقاومة الانحراف الذي حدث في جسم الأمة على يد العلماء المزيفين والمنحرفين والوقوف بوجه محاولات الاستغلال للمصالح والمطامع عن طريق تحريف الدين والعبث بأحكامه، وإيجاد الرواة الكذابين والوضاعين.

ولذلك نرى حرص الأئمة في المرحلة الثانية في الابتعاد عن الصراع السياسي والانصراف إلى بث العلوم وتعليم الناس وتربية المخلصين وتخريج العلماء والفقهاء على أيديهم، والإشراف على بناء الكتلة الشيعية والوجود

---

٥ . قال الإمام أبو جعفر عليه السلام (فتقدم علم من رسول الله قام علي والحسن والحسين وبعلم صمت من صمت منا). الإمام زين العابدين للمقرم ص٣٥.

المرتبط بهم في نموه الصاعد فترى وقوف الأئمة بوجه العلماء الرسميين ومحاولة نصحهم وتقويمهم والتصدي للعلماء المزيفين والمأجورين وكشف محاولات الرواة والكذابين وتعريتهم أمام الأمة والتركيز على حفظ العلوم وتسجيلها وإيجاد التيار العلمي الثقافي الكبير في الأمة عموماً في الوجود الشيعي خصوصاً.

وبهذه الجهود المخلصة والمتظافرة حفظ الأئمة هذا الدين من الانحراف وأوجدوا الفرقة الناجية التي احتضنت الإسلام الصحيح في المسيرة البشرية الطويلة[٦].

وكان هناك بالإضافة إلى هذه الجهود والمهام الكبار التي قام بها الأئمة عليهم السلام خط آخر في العمل يسير في نفس اتجاه هذه الأعمال، وهو تعميق فهم الأمة للدين وتقريبها منه والمحافظة على قاعدتها الإسلامية في الحياة العامة، وكذلك تجسيد الإسلام في الأمة بصورة عملية ورسم الصورة النموذجية للفرد المسلم والمؤمن الصادق.

وكانت الأدوار والسنين الطوال والأحداث المختلفة التي عاشها الأئمة عليهم السلام تمثل حياة مختلفة الجوانب للمؤمن، فإمام عابد وإمام ثائر وإمام سجين، وإمام غائب، كلها صور متكاملة ترسم أطروحة نموذجية لحياة المسلم، في مختلف شؤون الحياة وفي مختلف الأجواء والأحداث.

ونتلمس أهمية هذا التراث الكبير الذي خلفه لنا الأئمة عليهم السلام في تناولهم لكل مرافق الحياة وسهولة اكتشاف الموقف الإسلامي أمام أي قضية أو حدث وإمكانية انتهاج السلوك الإسلامي في كل شعب الحياة ومجالاتها، ومن جهة أخرى كانت حياة الأئمة عليهم السلام وبهذه الصورة المثالية التي عاشوها

---

٦ ـ جاء في ترجمة حبابة الوالبية في رجال الكشي عن الإمام السجاد عليه السلام (إنهٍ ليس على ملة إبراهيم في هذه الأمة غير شيعتنا ومن سواهم منها براء) وقال أيضا (نحن وشيعتنا على الفطرة التي بعث الله عليه محمد وسائر الناس منها براء).

وسط الأمة هي البديل الذي يطرحونه للأمة أمام المسلمين ضد هؤلاء المنحرفين سواء من كان منهم في القصور والقلاع المترفة أو من كان منهم في شعوذته وصومعته، فكانت الحياة الإسلامية النموذجية لكل إمام تمثل حربة في صرح المنحرفين وعثرةً في طريقهم.

وهناك إلى الجانب مهمة الأئمة عليهم السلام في الحفاظ على الشريعة وإبراز الصورة النموذجية للحياة الإسلامية تكليف آخر يناط بالأئمة وهو تكليف شرعي مهم يشترك به الأئمة مع باقي أفراد المجتمع كل حسب قدرته واستطاعته وهذا التكليف المشترك هو الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية وتماسكها وعلى الدولة القائمة آنذاك أمام قوى الكفر والمشركين، وكانت مجموعة من مواقف الأئمة عليهم السلام تأتي في هذا الشأن وتنطلق من هذا المنطلق الشرعي، لأن المحافظة على إسلامية الأرض من عاديات الأعداء وكسر شوكة الكفر واجب شرعي ثابت في أعناق جميع المسلمين كل على قدر استطاعته وإمكانياته.

ولابد حينما نريد أن نفهم مهمة الإمام أن نفرق ما بين الأعمال والمواقف التي تصدر عن تكليف شرعي عام وبين الأعمال التي تصدر عن أمور تستدعيها المرحلة وتقتضيها ظروف الإمام وأهدافه الخاصة.

ووجود منطلقين للأعمال التي تصدر عن الإمام لا يمنع من أن يقوم الأئمة عليهم السلام بتكاليفهم الشرعية بالصورة التي تخدم أهدافهم وتنسجم مع دورهم.

وانتهت المرحلة الثانية في عمل الأئمة عليهم السلام بعد أن دُوِّنَ العلم وسجل. وحفظه ثلة من العلماء، وتكامل الوجود الشيعي الذي سيحتضن الإسلام الصحيح ووضعت جميع الضمانات الكافية دون انحراف الأمة أو ضياع الإسلام ولمّا تضاءلت احتمالات الانحراف أو اندثرت. بدأت المرحلة الثالثة وهي العمل لإسعاد الأرض بتطبيع أحكام الإسلام وتجسيد الدين في ثنايا

المجتمع وهذه المرحلة هي الحلقة الأخيرة في المسيرة الإسلامية الظافرة وبها تتوج المسيرة الربانية المباركة.

وبعد أن أخذنا نظرة إجمالية لعمل الأئمة عليهم السلام ودورهم المشترك في التاريخ وأهمية الأعمال التي نهضوا بها والمسؤوليات التي تحملوهما نرجع الآن إلى الإمام الذي انعقد هذا البحث من أجله لنتبين موقعه من هذا التخطيط المبارك ودوره في هذه المسيرة العظيمة.

الفصل الثاني

أهداف الإمام ودوره في الأمة



عرفنا في الفصل السابق الدور المشترك للأئمة عليهم السلام في التاريخ ومهماتهم الأساسية التي تتلخص في:

أ - حماية الإسلام بالوقوف أمام محاولات التحريف والاستغلال من قبل الحكام المنحرفين أو العلماء المزيفين والرواة الكذابين والمأجورين.

ب - حماية الأمة ببناء قاعدتها الفكرية وتوضيح معالم دينها الحنيف وتعميقه في نفوس أبنائها.

ج - حماية الفرد المسلم برسم الصورة المثالية للحياة الإسلامية وإبراز المواقف النموذجية للفرد المسلم في كل نواحي الحياة وصعوباتها ومحنها.

ولقد عمل الأئمة عليهم السلام لتحقيق هذه المهمات في مراحل ثلاث:

مرحلة الصراع السياسي، ومرحلة مقاومة الانحراف، ومرحلة تطبيق الإسلام.

ولما كان الأئمة عليهم السلام يعيشون أجواء مختلفة ويعاصرون أحداثاً متباينة، فلابد من أن تؤثر تلك الظروف وتقلبات الأوضاع على مجموعة من أعمالهم ومواقفهم ولكن بما يحفظ جوهر المسيرة التي انتهجوها دون أن يخرجوا عن الخط المرسوم لهم أو المرحلة التي وصلوها.

وعليه فإن أعمال ومواقف كل إمام كانت تتأطر وتتأثر بجانبين:

الجانب الأول: المرحلة التي يعيشها ذلك الإمام، والدرجة التي وصلتها المسيرة الإسلامية في عهده، لأن تحديد المرحلة هو الذي يمكننا من معرفة الأهداف ويعيننا على اكتشاف دوره في الأمة.

الجانب الثاني: الواقع السياسي المعاصر للإمام والأوضاع الاجتماعية المحيطة به باعتبارهما يؤثران في اللون الذي تصطبغ به حياته الخاصة والشكل الذي تتبلور به أعماله ومواقفه.

إن النظر إلى عمل للإمام والانتباه إلى هذين الجانبين لضروري جداً في اكتشاف مهمته وتحديد أسلوب عمله، ثم إن دراستنا عن كل إمام من خلال

هذين العنصرين يعيننا في الوصول إلى حقائق مهمة يمكن أن تنفعنا في فهم مواقف أئمتنا عليهم السلام وأطروحتهم في العمل.

إن الخطأ في تحديد المرحلة التي يمر بها الإمام يؤدي إلى الخطأ في تفسير مواقفه وعدم الإحاطة، بالظرف المعاصر للإمام يؤدي أيضاً إلى ضياع فهم مواقفه وصعوبة في تفسير الظواهر الخاصة التي تبرز في حياته وسلوكه وكيفية ارتبطاها مع متطلبات عهده.

وللتمثيل على ذلك في خصوص إمامنا السجاد عليه السلام نذكر:

إن الإمام السجاد عليه السلام كان يمثل دور المنعطف المهم بين مرحلتين فاصلتين في عمل الأئمة عليهم السلام، فالأولى هي مرحلة الصراع السياسي مع الحكام قام بها الأئمة الثلاثة الأوائل من أجل الأهداف التي سبق ذكرها.

والمرحلة الثانية و تتقوم بترك الأمة للتحرك السياسي والتفرغ إلى بث العلوم الإسلامية ومقاومة الانحراف الفكري والتصدي لمحاولات التحريف وبناء الكتلة الشيعية والإشراف على تربيتها.

ومعنى ذلك أن الإمام السجاد عليه السلام تقع مهمته في المرحلة الثانية والتي تستدعي منه أن يظهر علمه ويكثّر طلابه وتلاميذه ويربي القاعدة العريضة الموالية له فيرتقي المنابر ويؤسس الاتجاهات والمدارس الفكرية التي تستلم منه وتصدر عنه، ولكن الشيء المعروف والبارز في حياته عليه السلام هو انزواؤه وتفرغه للعبادة وانشغاله بنفسه وبالبكاء على أبيه.

فكيف نفسر هذا الموقف...؟

وكيف تنسجم هذه الظواهر مع المرحلة التي كان يعاصرها الإمام آنذاك...؟

بعد أن نلقي نظرة على الواقع السياسي للدولة الحاكمة آنذاك وطبيعة تعاملها مع القوى المعارضة لها ثم الاضطراب الذي عم البلاد الإسلامية نتيجة للصراع بين حركة ابن الزبير في الحجاز والدولة الأموية في الشام ندرك حين

ذاك بعداً مهماً لانزوائه، وفهمه الروحي الذي تميّز به عليه السلام وكذلك لو تعرفنا على وضع الموالين والمحبين لأهل البيت عليهم السلام في عهد الإمام زين العابدين والحالة التي كانوا يعيشونها على أثر واقعة كربلاء، واستشهاد الإمام الحسين عليه السلام فيها ثم درسنا فهمهم وارتباطهم بأئمتهم وقادتهم وما كانوا ينتظرونه منهم، لفهمنا كثيراً من مواقف الإمام عليه السلام وسلوكيته الخاصة في الانعزال والانزواء في السنين الأولى من حياته، ولأصبح واضحاً لدينا كيفية ارتباط هذه المواقف والمظاهر مع أهداف الإمام الكبيرة.

وخلاصة ذلك، أن هناك جانبين ننظر إليهما عند دراسة كل إمام، فذلك لابد أن يكون هناك نوعان من الأعمال والمواقف تصدر وتبرز في حياة كل إمام، ولابد حينما نريد تحديد الدور واكتشاف الأهداف التي سعى لها الإمام من الانتباه إلى هذين النوعين من الأعمال.

النوع الأول: أعمال ومواقف يشترك بها الإمام مع باقي الأئمة وهي تلك الأعمال التي تستدعيها المرحلة، والأهداف المشتركة، أمثال ذلك الاعمال التي تصدر من الأئمة الذين يعيشون مرحلة الصراع السياسي أو الأعمال التي تصدر من الأئمة للتأكيد على إمامتهم وعصمتهم في الأمة، وكذلك تلك المواقف التي تصدر عن تكليف شرعي مشترك للأئمة كحرصهم على حماية الدولة الإسلامية أمام قوى الكفر والمشركين.

النوع الثاني: الأعمال التي تصدر من الإمام والتي لا يشترك بها مع باقي أعمال الأئمة سواء كانت تلك الأعمال والمواقف تستدعيها الظروف المعاصرة له، وتتطلبها أهداف مرحلية خاصة به، مثال ذلك في إمامنا ظاهرة البكاء على أبيه، وظاهرة الإعتاق التي امتاز بها عن غيره من الأئمة ولابد حينما نريد أن ندرس حياة كل إمام من التفريق بين هاتين الطائفتين من المواقف والأعمال، والطريقة المناسبة في ذلك هي التمييز بين الأهداف الخاصة لكل إمام والتي كان يسعى لتحقيقها والأهداف المشتركة بين الأئمة عموماً.

ومعنى ذلك أن نحدد المرحلة التي يعيشها الإمام ومهمات تلك المرحلة وكذلك نشخص الأهداف الخاصة التي تتطلبها مجمل الظروف والتقلبات التي يحيط بالإمام وما تستدعي حياته الخاصة.

ومن مجموع الأهداف الخاصة، والأهداف العامة يرتسم دور ذلك الإمام.

ومن خلال دراستنا عن حياة الإمام الرابع عليه السلام وفي ضوء ما سبق من مراحل عمل الأئمة ودورهم في الأمة، نرسم في ذهننا الأهداف الخاصة التي كان الإمام زين العابدين عليه السلام يسعى لتحقيقها في الأمة، وكان سلوكه الخاص والظواهر التي برزت في حياته هي الوسائل الفعالة لتحقيق هذه الأهداف وهي:.

أولاً : تركيز نهضة الحسين عليه السلام في الأمة وإبراز مأساة قتله وتخليدها تاريخيا[٧].

ثانياً : بناء القاعدة العشبية الموالية له وتوسيع دائرة المرتبطين والمحبين لأهل البيت عليهم السلام، واحتلال موقع مهم في الزعامة الشعبية الجماهيرية.

ثالثاً : تعميق مفهوم الإمامة وإرجاع قدسيتها وهيبتها، وخصوصاً عند الموالين والتأكيد على إمامته في الأمة واصطفائه من عند الله سبحانه وتعالى.

رابعاً : محاولة طمأنة السلطة الأموية منه خصوصاً، ومن خط الإمامة عموماً، والابتعاد والتخلص من متابعة أجهزة الدولة وعيونها بقدر الاستطاعة.

هذه الأهداف الأربعة هي أهم تلك الأهداف الخاصة التي كان الإمام يبغي تحقيقها، حسب نظرتنا لعمل الأئمة وحسب ما توصلنا إليه من خلال دراستنا لحياته عليه السلام.

---

٧ ـ الهدف الأول للإمام يمثل المرحلة الثالثة التي كانت تتطلبها ثورة الإمام الحسين عليه السلام وشارك باقي الأئمة الإمام السجاد في التركيز على هذا الهدف راجع فصل ظاهرة البكاء.

أما الأهداف المشتركة (كما أرى) أن الإمام زين العابدين والأئمة عليهم السلام من بعده قد ركزوا على تحقيقها في:

أولاً : بناء الكتلة الموالية وإبراز الوجود الشيعي المتميز.

ثانياً : مقاومة انحراف العلماء والمحافظة على الشريعة الإسلامية من التلاعب ونشر علوم أهل البيت عليهم السلام[8]، وإيجاد العلماء الصالحين الذين يستلهمون العلم والمعرفة منهم.

ثالثاً : تجسيد الإسلام في الأمة وإعطاء الدروس العلمية في الالتزام بالإسلام وتعليم الأمة آداب التعامل مع الله.

وهناك التكاليف الشرعية التي يشترك بها الأئمة مع باقي أفراد الأمة (كما قلنا) كجواب محافظة الإمام على الدولة الإسلامية وكسر شوكة الكفر والدفاع عن إسلامية الأرض ضد اعتداءات الكفار، كل ذلك كان عملاً آخر يقوم به الإمام ويستدعي منه موقفاً وسلوكاً خاصاً.

فالإمام عليه السلام يسعى إذن إلى:

- تحقيق الأهداف المشتركة مع باقي الأئمة.
- تحقيق الأهداف الخاصة التي تتطلبها مرحلته وظرفه.
- القيام بالتكاليف الشرعية ذات المصالح العامة.

وبهذا السعي تكتمل صورة الإمام زين العابدين عليه السلام ويتحدد دوره في الأمة، وتناولنا في القسمين الأول والثاني من هذا الكتاب * حقائق عن الواقع الذي كان يعاصره الإمام والآن سنتناول أهداف الإمام والوسائل والطرق التي استخدمها لتحقيقها ومقدار نجاحه والصعوبات التي لاقاها.

---

٨ ـ جاء في (كشف الغمة) الجزء الثاني صفحة ٣٠١: وقد روى فقهاء العامة عن (الإمام السجاد) من العلوم ما لا يحصى كثرة وحفظ عنه المواعظ والأدعية وفضائل القرآن والحلال والحرام والأيام ما هو مشهور بين العلماء ولو قصدنا إلى شرح ذلك لطال الخطاب وتقضى الزمان ...).

* حالت الظروف الأمنية للمؤلف دون طبع هذين القسمين.



الفصل الثالث

الإمامة والزعامة

لابد للإمام حينما يريد أن يؤثر في شيعته من أن يعرفوه ويؤمنوا به، ولابد للشيعة من أن تدرك مفهوم الإمامة وتعرف إمام زمانها إذا ما شاءت أن تتفاعل معه وتنتهج سيرته وتوجيهاته.

فهل كان الإمام معروفاً لدى شيعته...؟

وهل كانت الشيعة تؤمن بإمامته وعصمته...؟

هذا ما سنبينه في هذا الفصل، وقبل الخوض في إمامة زين العابدين عليه السلام سنستعرض وضع الأئمة الثلاثة الأوائل ومقدار إيمان أصحابهم وشيعتهم بإمامتهم.

إن تتبع وعي المسلمين عموما والشيعة خصوصاً لمفهوم الإمامة، والمراحل التاريخية التي مر بها هذا المفهوم يعيننا كثيراً على فهم مواقف الأئمة واكتشاف سر تعاملهم وسلوكهم بين أبناء الأمة.

إن الفهم الحالي الذي يتمتع به شيعيٌّ اليوم حول مفهوم الإمامة أشخاصها وأنهم مفترضوا الطاعة معصومون من الزلل، هذا المفهوم لم تدركه الشيعة في أوائل تكوينها، والأمة لم تكن تدرك وصايا النبي صلى الله عليه وآله في إمامة أمير المؤمنين مما سهل على البعض اغتصاب حقه في الحكم.

وسارت الأحداث والأمة لا تنظر إلى الإمام علي إلا بمنظار الصحابي الجليل وابن عم الرسول وصاحب السوابق المجيدة والمواقف الشجاعة في تاريخ الإسلام، أم كونه إماماً مفترض الطاعة مستلهماً الهدى معصوماً عن الخطأ فهذا ما لم يكن واضحاً مطلقاً.

وتجمع أعداء الامام من فاسقين ومارقين وناكثين على حربه ومناوأته وتصدوا له بالسلاح وحاربوه بالإشاعات والافتراءات والأموال، واستغلوا جهل الأمة وقرب عهدها بجاهليتها، واستعملوا الحيلة والمكر المحرم، فكانت فترة حكم الإمام كلها مآسي وآلاماً.

ولم تكن الحالة السياسية ولا الحالات الاجتماعية التي عاصرها الإمام في حكمه تمهدان لفهم إمامته، وكذلك كانت الأفكار والمبادئ، التي يحملها ذلك الجيل تقف عثرة دون التفاعل مع عظمته.

أما الحالة السياسية المضطربة التي خلفها أعداء الإمام ابتداءً من تحرك الطامعين بالخلافة من أصحاب الجمال، وانتهاءً بانشقاق أصحاب الإمام علي وجيش معاوية بعد معركة صفين، وبروز ظاهرة الخوارج، وما كان يفعله معاوية من عرقلة حكم الإمام علي عليه السلام، فيدس المخربين، ويبعث الرجال للاعتداء على القرى والأمصار الآمنة التابعة للإمام علي عليه السلام، فيعكر الحياة الأمنية ويبعثر جهود الإمام في استتباب الهدوء والسكينة على هذه الأمة.

هذا الاضطراب لم يكن يسمح للإمام علي عليه السلام أن يبرهن على براعة حكمه، ولم تكن الأمة في وسط هذا التناحر قادرة على اكتشاف عظمة الإمام.

أم الحالة الاجتماعية المفككة، فيصفها ابن أبي الحديد بقوله: (إن أهل الكوفة آخر عهد الإمام علي عليه السلام كانوا قبائل فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته بمنازل قبيلة أخرى فينادي باسم قبيلته:.

«يالنخع» أو «يالكنده» فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مر بها فينادون «يالتميم» و«يالربيعة» ويقبلون على ذلك الصائح فيضربونه فيضفي إلى قبيلته فيستصرخها وتثور الفتنة) وهذا النص يبين لنا أن المجتمع وصل في زمن الإمام من التصدع حدّاً يضعف معه أن يعيش الحياة الآمنة المستقرة التي يتمكن من خلالها أن يتجاوب مع سلوكية الإمام، أو أن يتعامل مع أخلاقه وآثاره العالية.

أما الأفكار والمبادئ التي كانت متشربة في أذهان المسلمين آنذاك وحتى في الجموع التي يقودها الإمام علي عليه السلام ويحارب بها أعداءه فهي تفضيل الشيخين وتقديس سيرتهما، وكان الجيل الذي عاصره الإمام يرى في الخليفتين وسيرتهما في الأمة قدوة صالحة وخلافة راشدة تنتهج سنة الرسول وهدى

الإسلام، ولم تتابع تلك الجماهير الإمام علياً عليه السلام إلا على أساس أنه الرج الوحيد القادر على أن يسير بالأمة تلك المسيرة التي سار عليها الصحابيان، ولا يحدث فيها ما أحدثه عثمان من الأخطاء بل لم يكن الإمام يستطيع مناهضتهما أو أن يعلن مخالفته لسيرتهما إلا نزرا[9].

فالإمام علي عليه السلام لم يستطع أن يفهّم الأمة إمامته وفضله، ولم تكن الظروف المحيطة به تسمح لأن يؤثر في المسلمين ذلك التأثير البالغ، فيغير من اتجاههم العام ونظرتهم حوله.

ويصف ابن أبي الحديد الأيام التي عاشها الإمام، والمرارة التي لاقاها بقوله: (ومن تأمل أحواله عليه السلام في خلافته علم أنه كان كالمحجور عليه، لا يتمكن من بلوغ ما في نفسه، وذلك لأن العارفين بحقيقة حاله كانوا قليلين وكان السواد الأعظم لا يعتقدون فيه، الأمر الذي يجب اعتقاده فيه يرون تفضيل من تقدمه من الخلفاء عليه ويظنون أن الأفضلية انما هي بالخلافة ويقلد أخلافهم أسلافهم ويقولون لولا أن الوائل علموا فضل المتقدمين عليه لما قدموهم إلا بعين التبعية لمن سبقه وإنه عليه السلام كان رعية لهم أكثرهم إنما يحارب معه بالحمية وبنخوة العربية لا بالدين والعقيدة، وكان عليه السلام مدفوعاً إلى مداراتهم ومداراتهم ولم يكن قادراً على إظهار ما عنده)[10] ثم يستطرد ابن أبي الحديد ويذكر أمثلة على مداراتهم وتبعيتهم للرعية وما كانوا يعتقدون من تفضيل الشيخين.

---

٩ ـ جاء في الوسائل جزء أو صفحة ٣٢٢ عن سليم الهلالي أن أمير المؤمنين عليه السلام خطب وقال: (قد عملت الولاة قبلي أعمالا خالفوا فيها رسول الله متعمدين لخلافه ولو حملت الناس على تركها لتفرق عني جندي).

وكان الإمام يستثمر هذه النظرة في بعض مصالح العامة وخصوصاً في دحر دعاوى معاوية ومحاولاته التهديمية مع حرصه عليه السلام على اجتناب أي موقف تأريخي يدان به وكما هو الحال في رفضه لبيعة الشورى لأن فيها شرط العمل على سيرة الشيخين.

١٠ ـ المجلد الثاني ص ٢٨٩ طبعة بيروت ١٩٥٦.

ولكن هذه الظروف لم تثن الإمام علياً عليه السلام عن أهدافه ولم تضعف من حماسه، وسعى بجد إلى استقطاب أكبر عدد ممكن من المحبين والموالين له، ولو بارتباط عاطفي ساذج، لأن ذلك سوف يثمر في يوم من الأيام ويتحول إلى إيمان مبدئي عميق، فأجاب عن المفتريات والإشاعات هذه، وبين منزلته عند الرسول وانفراده بهذه الميزة وكشف عن عظمته وعلمه، وعرف الناس بقابلياته، وما كان مستوراً عليهم من شخصيته الفذة، وأخبرهم بالملاحم وتنبأ لهم بالوقائع حتى قضى حياته وقتل في محرابه بعد أن نجح في كسب عدد كبير إلى ميادين الهدى وأقنعهم بإمامته أو بالارتباط به كقدوة صالحة فريدة.

ولكن هؤلاء الذي صاروا شيعة له وموالين لآل بيته وأهله لم يكونوا مدركين بعد إمامته ومستلزمات الولاية له ولأبنائه من بعده، فلم يدركوا معاني العصمة ولم يتجاوبوا مع افتراض الطاعة.

نلمس هذا الموقف من تعامل هؤلاء الشيعة مع إمامهم الحسن بن علي عليه السلام، واستنكارهم وانتقادهم لصلحه وامتعاضهم من سياسته.

وعاش الأئمة الثلاثة الأوائل مرارة الجهل بإمامتهم، حيث لم يدرك شيعتهم ومحبوهم إمامتهم فضلاً عن باقي المسلمين، ولم يتعامل المسلمون بل وحتى أهل الكوفة والمحبون مع الإمام علي عليه السلام على أنه الرجل الذي نصبه الرسول صلى الله عليه وآله للخلافة وأن الاعتراف بإمامته جزء ضروري من الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وآله. وكذلك لم تتعامل جموع الشيعة آنذاك مع الإمام الحسن عليه السلام على أنه إمامها بل ولم تنظر إليه بنفس الدرجة من الاحترام والإجلال التي نالها أمير المؤمنين عليه السلام، وكانت نظرتهم إلى الإمام الحسن مستمدة من موالاتهم لأبيه وارتباطهم به، كما هي الأعراف السائدة من احتلال الأبناء مقامات آبائهم حتى في الزعامة والسيادة.

وكانت شدة قرب الإمام الحسن عليه السلام بالرسول صلى الله عليه وآله وأنه ابن بنته وإرجاع الإمام علي عليه السلام الأمر إليه، وطاعة بني هاشم له

وخصوصاً أخاه الحسين عليه السلام وما أُثر من الأقوال والأحاديث في حب الرسول صلى الله عليه وآله له، هو الرصيد الكبير الذي يملكه الإمام الحسن عليه السلام في الأمة وبه كانت زعامته وهيبته في قلوبهم، ولذلك لم تكن الأمة تفرق بينه وبين الحسين عليه السلام إلا أن له الزعامة بعد أبيه دون أخيه.

وكذلك لم تتعامل الشيعة مع الإمام الحسين عليه السلام بعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام على أنه إمام مفترض الطاعة معصوم، وإنما كان في قلوبهم كقائد محبوب والرجل المأمول أن يعيد لهم عزتهم ومكانتهم ويدفع عن البلاد ظلم الأمويين وتعسفهم، ولعل أنصار الحسين عليه السلام الذين استشهدوا معه وقلائل من أهل الكوفة معهم هم زبدة الشيعة الذين كانوا يعرفون إمامته ويتعاملون معه من هذه الزاوية، وحينما بكت الشيعة الحسين عليه السلام يومها لا باعتبارهم فقدوا إماماً،بل لأنهم ظلموا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله اذ دعوه لينصروه وتخلفوا عنه، وتحركت الشيعة لتكفر عن ذنبها وللثأر للحسين عليه السلام لأنه ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله ومن أشراف أهل بيته ولأنه سيد شباب أهل الجنة لا باعتباره الوصي والإمام الثالث بعد أخيه والحجة المعصوم.

ويؤيد لنا هذا المعنى خلوا الأحداث والنصوص التاريخية من أي دلالة عن فهم عام للشيعة لإمامة الأئمة عليهم السلام وإدراكهم عصمتهم ووصايتهم ووجوب طاعتهم، ويؤكد ذلك أيضاً تعاملهم مع إمامهم الرابع زين العابدين عليه السلام بعد أن انتقلت إليه مهام الإمامة، والغموض الذي عاشته الشيعة في تعيين إمامها بعد استشهاد الحسين عليه السلام في كربلاء.

وإضافة إلى ما سبق فقد أحاطت بعض الملابسات بإمامة السجاد مما عرقلت زعامته في نفوس شيعته، واكتنفت إمامته بالغموض والشك وهذه الملابسات هي:.

أولاً : إن الطريقة التي انتقلت بها مهام الإمامة إليه عليه السلام تختلف عن باقي الأئمة الذين سبقوه، فالإمام علي عليه السلام يبقى حياً في فراشه ثلاث ليالٍ ما بين جرحه واستشهاده، حتى سمعت شيعته ومواليه وصاياه وتوجيهاته المتكررة لابنه الحسن عليه السلام في رعاية شؤونهم وقضاء حوائجهم فانتقلت زعامة الشيعة للإمام الحسن عليه السلام بصورة طبيعية لا غموض فيها ولا شبه وكذلك كان انتقل الزعامة من الإمام الحسن عليه السلام إلى الإمام الحسين عليه السلام على مرأى ومسمع من شيعته ومن بني هاشم، وما أوصى به الحسن إلى أخيه.

أم الكيفية التي آلت بها الأمور إلى الإمام السجاد عليه السلام فهي تتباين وتختلف عن سابقاتها، فقد خرج الإمام عليه السلام مع أبيه إلى كربلاء ونجا بأعجوبة من الموت ورجع مع السبايا إلى المدينة، أي لم يكن هناك إعلان أمام الناس عن إمامته أو زعامته ولم يقم أبوه بأي محاولة أمام المسلمين[11] أو بني هاشم في إيكال الأمر إليه، وإناطة الأمور به فكانت إمامته يكتنفها الغموض، ويمكن أن ينتابها الشك في حين لم يكن ذلك بمقدور في إمامة الأئمة الذين قبله.

ثانياً : الرصيد الذي كان يملكه الأئمة الذين سبقوه والذين كان يدعم زعامتهم وإمامتهم وسط المسلمين عموماً ولدى الشيعة بالخصوص، هذا الرصيد كان يفتقده الإمام السجاد عليه السلام تقريباً.

فالإمام علي عليه السلام كان معروفا بسوابقه وأمجاده العظيمة في الإسلام وقربه من الرسول عليه السلام، وكانت الأحاديث الشريفة والسنة النبوية في الإشادة بالإمامين الحسن والحسين عليهما السلام كثيرة يعرفها

---

١١ ـ هناك رواية واحدة تبين أن الحسين عليه السلام قد أشاد بابنه علي بن الحسين عليه السلام وأخبر جلساءه في إحدى المرات بأنه الإمام بعه وكان الجلساء لا يعرفونه ـ راجع البحار جزء ٤٦ باب ٢٠ حديث ٨.

المسلمون، ويتحدث بها الشيعة، ولقد قام الرسول صلى الله عليه وآله بعدة محاولات كشف بها عن حبه وتقديره لولديه الحسن والحسين، ثم أضاف الإمام علي بسيرته ورعايته لهما مجداً آخر، وكانت بطولاتهما وقابلياتهما التي لمسها المسلمون رقماً آخر في سجل عظمتهما.

أما الإمام زين العابدين عليه السلام فقد خلا تاريخه من أمجاد وبطولات لأنه لم يعاصر حروباً، ولم يشترك في ميادين قتال ولم يملك أحاديث في حقه تنبه الأمة على علو منزلته وعظيم شرفه إلا نزرا، بل لم يكن المسلمون ينتبهون إليه وسط العظماء من أهله وعشيرته، ولذلك نجد الإمام السجاد يخاطب أهل الكوفة حينما دخلها بعد واقعة الطف بقوله: (أيها النسا من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا علي بن الحسين) وكذلك كانت خطبته في تعريف نفسه لأهل الشام.

فمنزلة الإمام لم تعرف إلا بعد أن استشهد أبوه، ورأت الشيعة ما بهرت به ففاءت إليه ورجعت له في دينها. فالإمام بنى تاريخه وعظمته عند المسلمين بنفسه ولم يملك ما كان يملكه الأئمة من إجلال وعظمة وهيبة في القلوب وحتى قبل استلامهم مهام الزعامة والقيادة.

ثالثاً : إن حالة الخوف والاضطراب السياسي الذي كان يعاصر السنين الأولى من إمامته وخصوصاً بعد ثورة الحسين عليه السلام في كربلاء حيث أصبحت الشيعة تخاف على نفسها من بطش الأمويين واستهتارهم بسفك الدماء الذي أدّى إلى تقليص جهود الإمام وانكماش نشاطه وخصوصاً في تركيز إمامته وزعامته، وكانت الدولة وأجهزتها في حالة إنذار قصوى بعد النقمة الشعبية على يزيد واستغلال المعارضة لها، وكانت الحجاز (مقر الإمام) والعراق (شيعة الإمام) من أشد المناطق سخونة واضطراباً حيث تركز وجود المعارضة وتحرك ابن الزبير ضد الأمويين.

رابعاً : كان الأئمة الثلاثة الأوائل هم زعماء بني هاشم بلا معارض فلم يكن هناك أحد من كبراء بني هاشم يفضل نفسه عليهم بل كان هناك تكاتف وتباني على الاعتراف بإمامتهم وزعامتهم وعمادتهم للأسرة الهاشمية، ولقد حاول معاوية أن يبث فيهم روح الفرقة والاختلاف بتقديم عبد الله بن جعفر وجعله سيدهم فوجد الرد الحاسم منه، والاعتراف والإذعان للسيدين الحسن والحسين[١٢]. هذا مما يؤكد أنه لم يكن أحد من بني هاشم، «وهي أسرة النبي» من يحدث نفسه بمنزلة أو زعامة مع وجود الأئمة الثلاثة الأوائل، ولم يختلف المسلمون على الاعتراف بأفضليتهم على باقي أفراد الأسرة.

أما السجاد عليه السلام فلم يكن سنه ولا منزلته الأسرية تبوئه لزعامة الهاشميين، ورجع من كربلاء بعد استشهاد أبيه ومعظم أسرته، وهناك من كبراء بني هاشم من يكبره عمراً ومكانة، وهيبة بين الناس، حتى لم يكن له معهم نصيب[١٣].

أما الشك في إمامته فقد جاءت فيها أخبار وروايات منها:

روى جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: أن حبابة الوالبية دخلت على علي بن الحسين باكية فسألها عن بكائها قالت جعلني الله فداك إن أهل الكوفة يقولون لو كان عي بن الحسين إماماً كما تزعمين لأذهب هذا الذي بوجهك من الوضح[١٤]. وفي حديث آخر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: (ارتد الناس بعد قتل الحسين عليه السلام إلا ثلاثة أبو خالد الكابلي ويحيى ابن أم الطويل وجبي بن مطعم ثم قال: إن الناس لحقوا وكثروا)[١٥].

وهناك روايات تبين رقماً آخر لأولئك الذين كانوا مع الإمام عليه السلام في أول فترة إمامته، فعن الفضل بن شاذان انه لم يكن في زمن علي بن الحسين

---

١٢ . راجع تنقيح المقال للمامقاني ص ١٧٣.

١٣ . راجع فصل الأمويين والهاشميين في القسم الثاني من هذا الكتاب.

١٤ . عن دلائل الأئمة صفحة ٩٣ طبعة النجف ١٩٤٩.

١٥ . عن رجال الكشي ترجمة يحيى بن الطويل.

عليه السلام في أول الأمر إلا خمسة، سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، ومحمد بن مطعم، ويحيى ابن أم الطويل، وأبو خالد الكابلي.

ولو حاولنا أن ندقق هذه الأرقام وفي أشخاصها لوجدنا أن بعضهم لم يكن يؤمن بإمامة زين العابدين عليه السلام في أول الأمر وإنما كانوا أول الناس اعترافاً بإمامته، فمثلاً يروى أن يحيى بن أم الطويل كان سبباً في إيمان خالد الكابلي، وجاء في الخبر (أن أبا خالد الكابلي قال كنت أقول بغمامة محمد بن الحنفية فلقيني يحيى بن أم الطويل ودعاني إلى الدخول علي بن الحسين، فامتنعت، فقال لي ما ضرك أن تقضي حقي وتلقاه مرة فصرت معه ورأيته)[16] ثم يكمل الخبر قصة اعترافه بإمامته وكذلك خبر أن سعيد بن المسيب كان منحرفاً عن أمير المؤمنين ثم اهتدى»[17] أما الخوف الذي أصاب الشيعة زمن الإمام فيكشف عنه الحديث السابق من أن الناس ارتدوا بعد قتل الحسين عليه السلام، وما جاء في أن الإمام زين العابدين عليه السلام ضرب بيتاً من الشعر خارج المدينة[18] وكانت عمته زينب الكبرى عليها السلام هي الطريق في تبليغ الأحكام ورد الأجوبة إلى خصوص شيعته[19]، وكذلك ما جاء في ملاحقة السلطة لأصحاب الإمام وطلابه[20] مثال ذلك انتقام الحجاج من سعيد بن جبير لأنه كان يأتهم بعلي بن الحسين ويتردد عليه، ولأن الإمام عليه السلام كان يثني

---

١٦ - دلائل الإمامة للطبري صفحة ٩١ وفي ترجمته في رجال الكشي أنه اهتدى إلى إمامة السجاد بواسطة محمد بن الحنفية.

١٧ - راجع البحار جزء ٤٦ باب ٤٥٨.

١٨ - جاء في كتاب فرحة الغري صفحة ٤٣ طبعة النجف ١٩٦٣ عن الإمام الباقر قوله: (كان أبي علي بن الحسين عليه السلام قد اتخذ منزله من بعد قتل أبيه الحسين بن علي عليه السلام بيتا من شعر وأقام بالبادية فلبث بها عدد السنين كراهية مخالطة الناس وملاقاتهم وكان يسير من البادية إلى العراق زائرا لأبيه وجده عليه السلام ولا يشعر بذلك من فعله).

١٩ - راجع كتاب الغيبة للطوسي ص ١٣٨.

٢٠ - راجع قول الإمام الصادق (عليه السلام) في البحار جزء ٤٦ باب ٨ - ٢٦.

عليه[21]. أما بنو هاشم فلم يمنحوا الإمام علي بن الحسين عليه السلام وما كانوا يمنحونه أباه وعمه وجده من الاحترام والتقديم والاعتراف بالفضل والمنزلة، بل إن بعضهم كان يختلف معه والبعض الآخر يعاديه ويشتمه[22]، وإن كان هناك من أسرته من يجله ويتردد عليه ويتزود من علمه كما هو الحال في ابن أخته عبد الله بن الحسن المثنى وأمه فاطمة بنت الحسين.

ويوضح الإمام السجاد عليه السلام ابتعاد الناس عنهم ويقول:. (ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يحبنا)[23] ومن خلال هذه الأحاديث والروايات وبسبب الملابسات الآنفة الذكر نفهم أن الإمام السجاد عليه السلام عاش وفي أول عهده بالإمامة أزمتين، وكانت كثير من أعماله ومواقفه متوجهة نحو هاتين الأزمتين المحيطتين به:.

الأولى: القصور العام في فهم الشيعة لمفهوم الإمامة ولأشخاصها ويترتب على ذلك ضعف ارتباطهم بأئمتهم وتلكؤهم في الاستجابة لهم أو التضحية من أجلهم.

الثانية: الشك في إمامته والضعف في زعامته حيث كانت إمامته يكتنفها الغموض ويعتريها الشك، ولم يمتلك الإمام تلك الزعامة والمعروفية التي كان يمتلكها أبوه الحسين عليه السلام وعمه الحسن عليه السلام عند المسلمين عموماً أو الشيعة خصوصاً. فسعى الإمام بكل جهده أن يثبت إمامته في قلوب أصحابه وأن يركز مفهوم الإمامة وقدسيتها في نفوس شيعته، وسعى أيضاً إلى التنبيه على قدسية أهل البيت ومكانتهم، كل ذلك بكسب الجماهير الموالية له، وتوسيع دائرة المرتبطين والمحبين له واحتلال موقع مهم في الزعامة لدى المسلمين.

---

٢١ ـ راجع (العهد الثالث) في فصل الواقع السياسي في القسم الأول من هذا الكتاب.
٢٢ ـ راجع فصل الأمويين والهاشميين في القسم الثاني من هذا الكتاب.
٢٣ ـ راجع قول الإمام الصادق في البحار ج٤٦ باب ٤٥٨.

وقبل الخوض في الوسائل التي استخدمها الإمام عليه السلام في إثبات إمامته ينبغي أن نعرف الأمور التي ترتكز عليها إمامة أي شخص لدى الناس، ويتضح لنا ذلك من خلال النظر إلى ما كان يستهدفه الإمام من مجموع أعماله ونشاطه في تعريف الأمة بإمامته، وكان الإمام يركز للتعريف بإمامته على نقطتين:.

الأولى : أنه رجل يفوق الآخرين بفضله ومنزلته، فلا يقاربه فاضل ولا يلحق به عظيم، فهو أعلم الناس وأكرمهم وأتقاهم وأورعهم وكل من حوله دونه في صفات الكمال والشرف.

الثانية : أنه رجل مقدس فإنه يختلف عن باقي الناس وقد استوزره الله واصطفاه، وهو يحمل بين جنبيه قابليات فريدة وإمكانيات خارقة لأنه حجة الله في أرضه، والإمام حينما يبين للأمة قداسته واصطفاءه، ويكشف لها عن قابلياته وإمكانياته الخارقة، إنما يركز في ذلك مفهوم الإمامة، ويعمقه في نفوس شيعته ومحبيه، وكان بنفس الوقت يؤكد على إمامة الأئمة قبله ويبين منزلتهم وأنه الحجج على العباد، وأنه دونهم في الفضل[24] والمنزلة فاستشعرت الأمة (بمجموع أعماله) قداستهم جميعاً، وأنهم من شجرة واحدة.

فعمل الإمام في شأن الإمامة ذو جنبتين، فهو في نفس الوقت الذي يثبت إمامته ويعمق من مفوهمها عند أصحابه، بالأعمال الخارقة، والآيات الباهرة كان يقوم أيضاً بالتأكيد على وحدة الأئمة وترابطهم وأنهم جهة واحدة لا فصل فيها.

فالملاحظتان اللتان برزتا في حياة الإمام الشريفة، في شأن الإمامة هما:.

---

٢٤ ـ من ذلك ما كان يشيد به من عبادة جده أمير المؤمنين عليه السلام من يقوى على عبادة علي بن أبي طالب وكذلك الإشادة بأبيه الحسين عليه السلام وعظيم منزلته عند الله وأنه سائر على منهج آبائه.

الأولى : التأكيد المستمر على إمامة أهل البيت عليهم السلام والتعريف بأنهم أئمة مقدسون، وأنهم من شجرة واحدة مترابطة في حين لم نعثر على مثل هذا التأكيد وبمثل هذه الصيغ عند الأئمة قلبه.

ولذا نجد أن الإمام كان يؤكد كثيراً على مفهوم أهل البيت علهم السلام حتى جعله شعاراً يتميّز به عن غيرهم من بني هاشم وبذلك بنى اللبنة المهمة في تمييز الوجود الشيعي الأصيل، وحافظ على جهود الأئمة من أجل أن يستثمرها ليستفيد منها غيرهم من أقارب النبي (بني هاشم)، وجاء في أقواله (ونحن عترة رسول الله فأكرمونا لأجل رسول الله لأن رسول الله كان يقول في منبره احفظوني في عترتي وأهل بيتي فمن حفظني حفظه الله ... ونحن والله أهل البيت الذين أذهب الله عنا الرجس والفواحش ما ظهر منها وما بطن)[٢٥].

وفي قول آخر يؤكد على إمامة أهل البيت دون غيرهم بقوله (إن محمداً صلى الله عليه وآله كان أمين الله في أرضه فلما انقبض محمد صلى الله عليه وآله كنا أهل البيت أمناء الله في أرضه، عندنا علم البلايا والمنايا وأنساب العرب ومولد الإسلام وإنا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الإيمان وبحقيقة النفاق)[٢٦].

ونجد الإمام كان يعبر وبصيغ مختلفة عن وحدة الأمة وترابطهم وأنهم يصدرون من أصل واحد، وينتهجون مسلكاً واحداً، وأنهم الحجج دون غيرهم، فقال: (نحن أئمة المسلمين وحجج الله على العالمين وسادة المؤمنين وقادة الغر المحجلين)[٢٧].

وجاءت بعض أدعيته تؤكد على هذا المعنى أيضاً كقوله: (اللهم صلِّ على محمد وآل محمد شجرة النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومعدن العلم

---

٢٥ ـ بلاغة الإمام علي بن الحسين للحائري ص ٩٥ عن ناسخ التواريخ.
٢٦ ـ بلاغة الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) للحائري ص ٥٨ عن بحار الأنوار.
٢٧ ـ بلاغة الإمام علي بن الحسين للحائري ص ٢٩ عن المناقب وروضة الواعظين.

وأهل بيت الوحي، اللهم صلِّ على محمد وآل محمد الفلك الجارية في الجج الغامرة يأمن من ركبها ويغرق من تركها، المتقدم لها مارق والمتأخر عنهم زاهق واللازم لهم لاحق)[28] وفي دعاء آخر يقول: (رب صلِّ على أطائب أهل بيته الذين اخترتهم لأمرك وجعلتهم خزنة علمك وحفظة دينك وخلفاءك في أرضك، والمسلك إلى جنتك)[29].

وأكد الإمام بأقوال كثيرة على ضرورة حب الناس للأئمة عليهم السلام والاقتداء بهم وأن بذلك نجاتهم وبه فوزهم، بل أكد الإمام كثيراً على اتخاذهم أئمة وقادة وحججاً دون غيرهم من أئمة الضلال، وعدم الاكتفاء بحبهم والتمسك العاطفي بهم، فجاء في كلامه (إن دين الله لا يصاب بالعقول الناقصة والآراء الباطلة والمقاييس الفاسدة ولا يصاب إلا بالتسليم فمن سلم لنا سلم ومن اقتدى بنا هدي، ومن كان يعمل بالقياس والرأي هلك، ومن وجد في نفسه شيئاً مما نقول أو نقضي به حرجاً كفر بالذي أنزل على السبع المثاني والقرآن العظيم)[30].

وجاءت بعض كلماته عليه السلام (من فارقنا هلك ومن اتبعنا نجا والجاحد لولايتنا كافر ومتبعنا وتابع أوليائنا مؤمن لا يحبنا كافر ولا يبغضنا مؤمن من مات وهو محبنا كان حقاً على الله أن يبعثه معنا، نحن نور لمن تبعنا ونور لمن اقتدى بنا، من رغب عنّا ليس منا، ومن لم يكن معنا فليس من الإسلام في شيء، بنا فتح الله الدين وبنا يختمه)[31].

وبهذه الجهود وبفضل التأكيد على هذه المفاهيم بدأ الوجود الشيعي يتميز شيئاً فشيئاً على يد الإمام في عهد إمامته بعد أن تميزت قيادته (أهل البيت) وضرورة التمسك الجاد بهم والارتباط الحقيقي بولايتهم دون غيرهم (الأئمة

---

٢٨ ـ أدعية شهر رمضان في مفاتيح الجنان.

٢٩ ـ دعاء عرفة في الصحيفة السجادية.

٣٠ ـ إكمال الدين وإتمام النصيحة للصدوق ص ٢١٥ طبعة النجف ١٩٧٠.

٣١ ـ بلاغة الإمام زين العابدين للحائري ص ٥٨.

اثنا عشر إماماً، عدد الأسباط ثلاثة من الماضين وأنا الرابع، وثمانية من ولدي أئمة أبرار من أحبنا وعمل بأمرنا كان من السنام الأعلى، ومن أبغضنا وردنا، أو رد واحداً منا فهو كافر بالله وبآياته)[٣٢].

وهكذا ساهمت هذه الأحاديث في توضيح مفهوم الإمامة وأشخاصها وأكد فيها على إمامته لشيعته، وعلمهم مسؤوليتهم أمام أئمتهم، وكيفية الارتباط بهم، والمتتبع لحياته الشريفة وكلماته وأدعيته المباركة، يجد الشيء الكثير من هذه النصوص والأحاديث التي كانت تستهدف إمامة أهل البيت وترابطهم وقدسيتهم.

الثانية : التأكيد على منزلته الخاصة ومنصبه الإلهي وقابلياته الخارقة، ففي حين لم نجد مثل هذه الأعمال وبهذا المقدار في حياة باقي الأئمة، لأنهم كانوا في غنىً عنها، فلم تنعطف على أيديهم مسيرة الأئمة ولم يعانوا محنة الشك بإمامتهم كما هو الحال في إمامنا السجاد عليه السلام.

ويمكن أن نجد هناك أسلوبين من العمل[٣٣] ظهرا في حياة الإمام لمعالجة هذه المحنة:.

أ ـ العمل غير المباشر: وهي الأعمال التي كانت تؤكد على فضله وتلمح بإمامته وتدل على علو منزلته، ويتبيّن هذا العمل بجلاء عند الحديث عن الظواهر الأربع التي برزت في حياته.

ب ـ العمل المباشر: وهي الممارسات التي كان يقوم بها الإمام من التبليغ لإمامته والإعلان عن اصطفائه من قبل الله واختصاصه وانفراده بهذه الخصوصية دون غيره.

---

٣٢ ـ نفس المصدر السابق ص ٢٦٠.

٣٣ ـ وهذا الأسلوب غير ذلك الرصيد الذي كان يملكه الإمام من الأحاديث الواردة في حقه ومن قبل الرسول (صلى الله عليه وآله) ومن جده أمير المؤمنين (عليه السلام) وكذلك شرف نسبه وحسبه الذي كان يعرف به كل العرب والعجم.

وقبل الخوض في البحث عن الفوائد الأغراض التي كان يقصدها الإمام من بناء هذه القواعد الشعبية، يجدر بنا أن ننبه على أمرين مهمين في هذا الشأن:.

الأول : أن الإمام عاش الفترة الأولى من إمامته مبتعداً عن مشاغل الحياة وأحداثها حيث كانت تقتضي ظروفه وأهدافه ذلك وكان يسعى وبكل جهد ومواصلة أن يبرز أمام المسلمين بزعامة شعبية واسعة، ويكسب قلوب من حوله من المسلمين ويكثر من الموالين والمحبين له، فسعى الإمام لأن يثبت إمامته، ولأن يكون افضل بني هاشم في عين الأمة، ولأن يحتل موقعاً شعبياً كبيراً وزعامة روحية مرموقة.

فيخطئ من يتصور أن الإمام السجاد عليه السلام عاش منزوياً منشغلاً بنفسه طوال حياته، أو أنه كان معروفاً مشهوراً يحبه الناس ويجلونه في أول فترة من إمامته.

الثاني : إن الإمام أراد أن تكون زعامته للأمة زعامة دينية، وأن تصطبغ نشاطاته الاجتماعية بصبغة روحية علمية، فكانت زعامته في الأمة تختلف عن زعامة الأئمة قبله حيث كانوا يصارعون الدولة ويقصدون الإصلاح ويقارعون الظالمين.

فكانت الطريقة التي عاش بها الإمام زين العابدين عليه السلام والظواهر التي برزت في حياته لا تسمح وزعامته إلا أن تكون دينية وروحية وعلمية، وأن يكون قدوة صالحة في المجال التربوي والمعيشة الربانية لا في مجالات التضحية والجهاد. فكانت حياته بطولات في ميادين الجهاد الأكبر - جهاد النفس - لا الجهاد الأصغر - جهاد الأعداء .

ويحسن بنا أن نتفهم الهدف الذي من أجله سعى الإمام السجاد عليه السلام أو غيره من الأئمة لكسب التأييد الشعبي العام. وما الفائدة التي كان رجوها الأئمة من وجود ثلة قليلة من الناس تحبهم وتتعاطف معهم، ولكنها لا

أما سعي الإمام لتركيز زعامته في الأمة، واستقطاب المسلمين إلى التعاطف معه فكان هو الخط الثاني الموازي لعمله في تثبيت إمامته. وتناولنا في البحث السابق تفاصيل علمه عليه السلام في تعميق مفهوم الإمامة، ودفع الشك عن إمامته، وتركيزها في قلوب أصحابه وشيعته وسنتناول في هذا الفصل سعي الإمام إلى التعريف بنفسه وبناء القاعدة المحبة والموالية له.

والمراد بالقاعدة المحبة والموالية له تلك الثلة من الناس التي تؤيد الإمام وتميل إليه، وتتعاطف معه، وتختلف درجات هذا الميل والتأييد، فقد تكون مجرد تعاطف روحي معه، وقد يكون أكبر من ذلك، فتتعمق درجات الحب والميل إليه، وقد يتصاعد فتكون الموالاة له والارتباط به، وهذا القسم الأخير هم الذين نقدر أن نسميهم بشيعته وإن كان اسم الشيعة آنذاك يشمل القسم الثاني أيضاً.

وكما تختلف درجات التعاطف داخل الجماهير المحبة والمؤيدة للإمام فكذلك تختلف الأسباب التي جعلت من هؤلاء ضمن هذه الصفوف التي تحب الإمام وتجله، فقد يأتي التعاطف عن طريق اشتهار فضائله ومناقبه، وقد يأتي عن طريق التجربة والممارسة معه.

وقد يكون سببه المحيط والبيئة المحبة للإمام كأكثرية الكوفة وطبقة الموالي. وقد يكون لميزاته الشخصية ككونه ابن الحسين عليه السلام وأنه من سلالة النبي صلى الله عليه وآله وربما كانت الموالاة له نتيجة لفاقة وفقر رفعه الإمام عنه، أو حاجة قضاها له أو عبادة ودعاء رآها بعينه وسمع مضمونها، وقد يكون الإيمان به والارتباط لشيء غير هذا أو ذلك وإنما صدر عن عقيدة ووعي بإمامته وعصمته، فمجموع هذه الأصناف من الناس المؤيدة للإمام التي اختلفت أسباب تأييدها وتعاطفها هي القاعدة التي كان يريد الإمام بناءها وكسبها له.

تصمد في الأحداث ولا تقف معهم في المحن والشدائد كما هو الحال في ارتباط الجماهير العراقية بالإمام الحسن والحسين عليهم السلام حيث لم ينصروهم في أوقات الشدة والبأس فكيف نفسر جهود الإمام لبلورة هذا التأييد وإبرازه في الأمة، ولماذا لم يحرص الإمام ويكثف جهوده ويقتصر على أولئك المخلصين والمرتبطين به من الشيعة فقط، يربيهم ويعلمهم ويكثرهم ويتخلى عن السعي للزعامة العريضة التي لا تنفع في شيء؟

ولكي نصل إلى فهم عميق لأبعاد عمل الإمام وللأغراض التي كان يستهدفها من كسبه للجماهير المحبة والموالية له من شيعة وغيرهم فلابد أن ننظر إلى هذا الكسب من جوانب متعددة.

المحبون والتشيع

إن الميلٍ والحب للإمام الذي هو القاسم المشترك لأفراد هذه القواعد يعتبر عملاً ضرورياً لكسبهم إلى التشيع، إذ لم يكن في تلك الأيام اختلاف فكري محدد في الأمة لكي يتمايز عليه الناس ويفترق به الحق عن الباطل، وكان الارتباط والتعاطف معه يمثلان مؤشراً للاتجاه الصحيح وأرضية خصبة لتبني الأفكار الحقة والتلقي من الإمام عليه السلام الإسلام وأحكامه، وهو عين التشيع.

فكان كسب الموالين والمحبين أول باب من أبواب ولوج الناس إلى التشيع والأرضية المناسبة لعمل الأئمة وللتأثير فيهم، وهم الوسط الملائم لنشاط المخلصين من شيعة الإمام عليه السلام لهدايتهم وارتباطهم بأهل البيت روحاً وعملاً.

فبناء القواعد الشعبية المحبة المتعاطفة مع الإمام أول عملية لنزع الأفكار المناقضة لخط أهل البيت ولصيرورة الناس ضمن شيعتهم ومواليهم.

أن كسب المجموعة الواسعة من المحبين يعتبر عملاً ضرورياً للمرحلة التي عاصرها الإمام من مسيرة الأئمة حيث لم تكن هناك منازعة مع السلطة أو صراع مع الخلفاء المنحرفين، ولم يكن من أهداف الإمام عليه السلام إسقاط الدولة أو الدعوة إلى نفسه بالخلافة، بل كانت مهمات المرحلة تقتضي العمل وسط المسلمين، فكانت الأمة الميدان الرئيسي لعمل الإمام يقوم انحرافها، ويربي أبناءها ويعلمهم دينهم، ولكي يكون علمه أعمق وتأثيره أوسع لابد من أن يكون معروفاً ومحترماً تجله العيون وتحبه الرجال وتعترف بفضله وعلو منزلته.

فسعي الإمام عليه السلام لأن يكون زعيماً دينياً ورجلاً محبوباً، إنما هو من أجل بث علومه ونشر معارفه الربانية وانقياد الناس إليه للتأثير بهم في وقت لا يثير السلطة عليه ولا يجعلها تفكر بالانتقام منه.

ولم يختر الإمام العمل السري كما فعل غيره من بني هاشم كالعباسيين أو الحسنيين مثلاً، لأن أطروحته في العمل تختلف في أساسها وأهدافها عنهم. فالائمة في مرحلتهم التي كان يعاصرها الإمام السجاد قد نبذوا طريق العمل المتكتم، لأنه لم يكن من أهدافهم إسقاط الدولة واستلام الحكم، بل كان همهم يتركز في إصلاح الأمة وبناء الكيان الشيعي ومقاومة الانحراف كما تقدم ذلك.

ولم تكن دعوتهم مما يمكن التستر عليها بعد أن نهض بها الأئمة الأوائل وبينوا أهم ركائزها ومتبنياتها، بل لعل التستر بها في وسط تلك الإجراءات الكبيرة، لطمس معالمها والتصدي لها وتشويه سيرة أئمتها وملاحقة رجالها بالقتل والتشريد كل ذلك يعرضها للهلاك والأفول والزوال، فلا يكون هناك محصل لتلك الجهود الكبيرة التي أريد منها تقويم الأمة والمحافظة على رسالتها، فنبذ الأئمة آنذاك الطريق السري في العمل لأنه لا ينسجم مع الأهداف المرحلية التي كانوا يبغونها ولا يحقق الآثار والأغراض التي يرجونها، ولم يقفوا عليهم السلام دون أن يستفيدوا من إيجابيات العمل المتكتم حيث فتح

باب التقية للنجاة بالمؤمنين والتخلص من ملاحقة السلطة والأعداء لهم. فقد جاء عنه عليه السلام مخاطباً شيعته: (يغفر الله للمؤمن كل ذنب ما خلا ذنبين التقية وتضييع حقوق الإخوان)[٣٤]، وقال أيضاً في هذا الشأن (التارك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كنابذ كتاب الله وراء ظهره إلا أن يتقي. فقيل وما تقاته؟ قال يخاف جباراً عنيداً يفرط عليه أو أن يطغى)[٣٥].

المحبون وحماية الإمام

وتوسيع دائرة المحبين والمرتبطين بالإمام، وخلق التأييد الشعبي الواسع في الأمة من الوسائل المهمة في المحافظة على شخص الإمام من تناوش السلطة وحمايته من تعسف أجهزتها، وذلك خوفاً من النقمة الشعبية ومراعاة لمشاعر المسلمين.

فالتأييد الشعبي الواسع للإمام كان بمثابة حصن يحمي الإمام من تنمر الدولة وبطشها وكانت السلطة تحاول أن تكسب التأييد الشعبي بواسطة تظاهرها برعاية الإمام أو احترامه فما كان ذلك التودد الذي بذله الخفاء أو الولاة للإمام عن حب وإجلال له وهو المعروف برفضه للدولة الأموية، وإنما كان من أجل منافعهم الشخصية ومراعاة للرصيد الشعبي الذي كان يملكه الإمام.

ويوضح لنا مقدار حماية هذه القواعد للإمام أن الدولة لم تجرؤ على قتل الإمام علناً بل سعت إلى دس السم إليه سراً كي تتخلص منه وتتجنب تلك المضاعفات التي يمكن أن تحدث لو أخذته علناً وقتلته جهراً.

---

٣٤ ـ بلاغة الإمام زين العابدين للحائري ص ١٦٧ عن جامع الأخبار.
٣٥ ـ أعيان الشيعة جزء ٤ ص ٣٩٤ طبعة دمشق.

أما الوسائل التي استخدمها الإمام في تكثير المحبين وكسب التأييد الشعبي فيمكن الإشارة إليها بنقاط تسلط الضوء على ما كان يقوم به الإمام من أعمال ونشاطات في هذا الشأن :

١. الأسلوب المتمثل في مجموعة الظواهر التي برزت في حياته الشريفة كظاهرة التعبد والاعتكاف والإنفاق والبكاء، حيث كانت بمجموعها تمثل وسائل فعالة في بلورة التأييد الشعبي وتعاطف مجموعة كبيرة من الناس معه، فالمظلومية التي نشرها عن مقتل أبيه ببكائه الحار المتواصل، وبواسطة إنفاقه الواسع وزهده وورعه، كسب قلوب الناس، وأحبه كل من سمع به وبمناقبه وشرف نسبه.

٢. الأخلاق الإسلامية العالية، والتي هي أهمٍ العناصر في التأثير والكسب وتوثيق الصلة، وبواسطة أخلاقه السامية أنتج جيشاً كبيراً من المحبين المنشدين له.

فحرص عليه السلام أن يقابل السيّئة بالحسنة ويزداد فيها، والتزامه بالمثل العالية وإضفاؤه الحنان والعطف على من حوله، كل ذلك كانت رسائل ناجحة ومثمرة في هذا السبيل. وكانت أخلاقه الإسلامية المثالية إضافة إلى كونها وسيلة من الوسائل الناجحة لتحقيق أغراضه الشريفة، وهي دروس عملية للمجتمع الذي يعيشه وللأجيال القادمة. ومن تلك الأخلاق ما اشتهر عن تعففه عن الاقتصاص من هشام بن إسماعيل ذلك الوالي الشرس، الذي كثيراً ما كان يؤذي الإمام عليه السلام وأصحابه أثناء ولايته على المدينة حتى جاء أمر الدولة بتنحيته وإيقافه أمام الناس للاقتصاص منه، فما كان من الإمام إلا أن أمر خاصته وأصحابه بأن لا يتعرضوا له حتى ولو بكلمة، ثم دنا الإمام منه (وكان هشام أشد ما يخاف منه لسوء فعله معه) وقال له: (انظر إلى ما أعجزك من مال تؤخذ به فعندنا ما يسعك فطب نفساً منا، ومن كل من يطيعنا) وبهذا الخلق الرائع قابل الإمام سيّئة هشام وعفا عنه واستعد لتحمل

أعبائه المالية، فما كان من هشام إلا واعترف بفضله وأشاد بمنزلته ونادى (الله أعلم حيث يجعل رسالته)[٣٦].

ومن تلك الأخلاق أيضاً إيواؤه لعوائل الأمويين وبني مروان بعد أن طرد أهل المدينة الأمويين وحزبهم ومن يرى رأيهم واستجاب لاستنجاد مروان وابنه عبد الملك في حفظهم عنده بعد أن رفضهم وجهاء المدينة وساداتها، وكان الإمام أحق بالرفض وهم أعداؤه الحقيقيون وقاتلوا أبيه، ثم كان الإمام يجلس الفقراء والمساكين والعبيد ويضيفهم عنده ويكثر من هذا النشاط حتى عرف به وقيل له (إنك تجالس أقواماً دوناً) فوضح لهم سبب ذلك وأعطاهم درساً بليغاً بقوله (إني أجلس من أنتفع بمجالسته في ديني)[٣٧].

٣ـ القيام بكل ما يلفت الأنظار إليه ويزيد من علاقته وتأثيره في وسط الأمة، وذلك لأن الإمام حينما يريد أن يستقطب الناس لابد وأن يلفت أنظارهم إلى جملة من أعماله الرائعة وأخلاقه السامية وشرفه الأصيل ونسبه الرفيع بل وحتى عبادته ودعائه وإنفاقه.

فالإمام حينما يعيل في وقت الشدة وأثناء هجوم الجيش الأموي على المدينة وإباحتهم لهم، أربعمائة نسمة من ماله الخاص وتحت رعايته[٣٨] ويدفع عنهم بطش السفاح قائد الجيش إنما يقوم بعمل كبير ملفت للأنظار ومخلد لصاحبه وممجد له.

ولا يسافر الإمام إلا مع رفقة لا يعرفونه ويشترط عليهم أن يكون في خدمتهم فيما يحتاجون، فيكشف لهم أثناء السفر عن جميل فعله وعظيم أخلاقه، ثم يعرفهم بعد ذلك شخصه ونسبه وفضله (فيثبون إليه ويقبلون يده ورجله)[٣٩].

---

٣٦ ـ راجع البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٨٤.
٣٧ ـ راجع البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٨٢.
٣٨ ـ راجع البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٨٦.
٣٩ ـ راجع البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٤١.

وإصرار الإمام على السفر دائماً مع رفقة لا يعرفونه كي يغتنم فرصة الانتماء مع مجاميع جديدة، ويؤثر فيهم حتى سئل عن هذه الظاهرة فأجاب بما يزيد من حبهم له (أكره أن آخذ برسول الله ما لا أعطي مثله)[٤٠].

ولقد وجد كثير من الناس منه سلوكية مثالية لفتت نظرهم إليه وكانت هذه الالتفاتة وسيلة أجبرتهم للتعرف عليه، والسؤال عن اسمه ونسبه. ولو تصفحت الروايات لعثرت على كثير من النصوص التي تبين هذه الخصوصية في كثير من الأحداث والوقائع التي تمت على يد الإمام، ونذكر لك بعض هذه النصوص من دون الإشارة إلى الوقائع.

- (فقلت بالذي ترجوه يوم الآزفة ويوم الفاقة من أنت؟ فقال لي أما إذا أقسمت فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب)[٤١].
- (قال فاقتفيته فإذا هو زين العابدين)[٤٢].
- (فقال القرشي لابن المسيب من هذا يا أبا محمد؟ فقال هذا سيد العابدين علي بن الحسين بن أبي طالب)[٤٣].
- (فسألت عنه فقيل لي هذا زين العابدين)[٤٤].
- (ثم غاب عني حتى أتيت مكة فإذا بحلقة مستديرة فاطلعت لأنظر فإذا صاحبي، فسالت عنه فقيل هو زين العابدين)[٤٥].

وفي مراجعة الفصول القادة التي تكلمنا فيها عن الظواهر التي نشأت في حياة الإمام نجد أمثلة كثيرة من هذا القبيل.

---

٤٠ ـ البحار ٤٦ ص ٩٣.
٤١ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٧٣.
٤٢ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٧٥.
٤٣ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٧٢.
٤٤ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٧٨.
٤٥ ـ البحار ٤٦ باب ٥ ـ ٧٨.

نجاح الإمام

لقد تبين فيما مضى المهمات التي أنيطت بالإمام عليه السلام والأهداف التي كان يبغي تحقيقها، وتعرفنا على الأعمال والنشاطات التي كان يقوم بها الإمام لتحقيق أغراضه وأهدافه الكبيرة، وبقي الآن أن نستطلع النجاح الذي أحرزه والنتائج التي أثمرتها جهوده في تثبيت إمامه عليه السلام وتكثير المحبين والمرتبطين وخلق التأييد الشعبي الموالي له والاقتناع بفضله ومنزلته وعظيم شأنه.

وعلينا منذ البدء أن نستذكر تلك الحالة التي كان عليها الإمام أو فترة إمامته وانعزاله عن الناس وانشغاله بعبادته وانقطاعه عن مسرح الأحداث نستذكر تلك النصوص التي وردت عن الأئمة في وصف تلك الحالة مؤكدة بأن الناس انقلبوا بعد قتل الحسين عليه السلام وأنه لم يكن يؤمن به إلا نفر قليل لا يتجاوز الخمسة، وفي خبر آخر إلا ثلاثة[٤٦] وما كان يقوله الإمام من أنه لا يوجد عشرون رجلاً يحبوننا في مكة والمدينة.

ولكن بجهود الإمام وبعمله المتظافرة وبما منحته السماء من قابليات وإمكانات استطاع أن يحقق ما كان يبغيه ولم تنته حيتاه الشريفة إلا وسجل الأرقام التالية التي تعبر عن نجاحه في مهمته:

- ❑ (إن القراء كانوا لا يخرجون إلى مكة حتى يخرج علي بن الحسين فخرج وخرجنا معه ألف راكب).
- ❑ (كان القوم لا يخرجون من مكة حتى يخرج علي بن الحسين سيد العابدين).

---

٤٦ ـ جاء في ترجمة يحيى ابن أم الطويل في رجال الكشي عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: (ارتد الناس بعد قتل الحسين عليه السلام إلا ثلاثة: أبو خالد الكابلي، ويحيى بن أم الطويل، وجبر بن مطعم ثم إن الناس لحقوا وكثروا).

❑ (نعم لقيته وما لقيت أحداً أفضل منه، والله ما علمت له صديقاً في السر ولا عدواً في العلانية، فقيل وكيف ذلك؟ قال لأني لم أر أحداً وإن كان يحبه إلا وهو لشدة معرفته بفضله يحسده، ولا رأيت أحداً وإن كان يبغضه إلا وهو لشدة مداراته له يداريه)[٤٧].

❑ (حج هشام بن عبد الملك فلم يقدر على استلام - الحجر الأسود - من الزحام فنصب له منبراً فجلس ... أذ أقبل علي بن الحسين وعليه إزار ورداء. فجعل يطوف فإذا بلغ موضع الحجر تنحى الناس حتى يستلمه هيبة له وإجلالاً)[٤٨].

❑ (فبينما هو يقرأ الكتاب إذ دخل علي بن الحسين عليه السلام فأفرج الناس عنه حتى انتهى إلى الحسن، فقال يا بان العم ادع بدعاء الفرج يفرج عنك)[٤٩].

❑ (إذا دخل علي بن الحسين - إلى المسجد الحرام - فأفرجوا له فلما عرف أمرهما تقدم فوضع يده عليهما)[٥٠].

❑ (فلما مات شهد جنازته البر والفاجر وأثنى عليه الصالح والطالح وانهال الناس يتبعونه حتى وضعت الجنازة)[٥١].

---

٤٧ - راجع البحار جزء ٤٦ باب ٥ - ٢١ والمتكلم هو الزهري وهو من علماء الدولة.
٤٨ - ترجمة الفرزدق في رجال الكشي.
٤٩ - البحار جزء ٤٦ باب ٧ - ٦.
٥٠ - رجال الكشي ترجمة سعيد بن المسيب.
٥١ - رجال الكشي ترجمة سعيد بن المسيب.

الفصل الرابع

الإمام والسلطة

لابد قبل الكلام عن علاقة السلطة بالإمام زين العابدين من الحديث عن وضع الخلافة الذي كان سائداً قبل وفي أثناء إمامته عليه السلام.

لقد كانت الخلافة باعتبارها منصباً إسلامياً خطيراً هي موضع الاختلاف في الأمة الإسلامية الذي سبب الكثير من المنازعات والحروب بين الفرقاء في العالم الإسلامي وعلى طول الخط، ونشأت هذه المشكلة في اليوم الأول من بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله حيث استفاد بعض الطامعين بالخلافة من جهل الأمة وقرب عهدها بجاهليتها.

فسلبت الخلافة من أهلها ونحي الإمام علي عليه السلام عن منصبه الذي أوصى به الرسول صلى الله عليه وآله.

وكانت حجتهم في دفع الرجال عن الخلافة أو المطالبة بها، أن الخلافة في قريش، ولا يمكن أن تخرج إلى باقي أحياء العرب لأنهم رهطه وعشيرته. ثم أبعد بنو هاشم وأهل البيت عنها بحجة أن قريشاً لا تقبل أن تجمع النبوة والإمارة في بيت واحد.

وتكاتفت الأيدي على التواصي بتنحية أهل البيت من مسؤوليتهم، فأوصى الأول للثاني والثاني إلى ستة فتوسعت رقعة المرشحين للخلافة بعد أن تم تزكيتهم والاعتراف بجدارتهم من قبل الخليفة الثاني.

ولما جاء عثمان وتجلى الانحراف، ولم يكن حكمه أو سياسته مما يمكن السكوت عنها أو الصبر عليها، فثار أبناء الأمصار، ونشط من كان طامعاً بالإمارة وراغباً فيها ومحاولاً الاستفادة من النقمة على عثمان لمصالحه الخاصة، ولما لم يكن لهم نصيب في الحكم والإمارة حاولوا ذلك بالقوة في حكم الإمام علي كما هي الأسباب الحقيقية لحرب الجمل.

ثم دارت الأيام وتعاقبت الأحداث حتى أخذ خلافة المسلمين معاوية وأضفى على شخصه صفة الصحابي الجليل، وكاتب الوحي، محاولاً بذلك التستر على تاريخه وأطماعه ولكي يقنع الأمة بإمارته عليها، بعد أن طمست كل

القواعد والميزات التي يجب أن يتحلى بها الخليفة غير الصلاح والصحبة. وكانت أساليبه الماكرة، وتسخيره العدد الكبير من المحدثين والرواة الكذابين الذي يعملون في جهازه الخاص، كل ذلك ساعد في تثبيت مركزه وتعميق سلطانه في الأمة. ولكن بعد أن أوصى بالخلافة إلى يزيد، المعروف بفسقه لدى عموم المسلمين ثم رفض مجموعة من أشراف المسلمين وكبرائهم مبايعته ونهض الحسين عليه السلام بعملية رد حازمة ضد هذه الخلافة الفاجرة، والانتهاكات الصريحة للحرمات الشرعية حين ذاك لم يبق أي احترام لهذا السلطنة وانتزعت كربلاء قدسيتها من قلوب المسلمين.

وكان لهذه الأطماع في السلطة والنزاع حولها آثار ونتائج سلبية في الأمة، وخلفت هذه الانحرافات في الحكم عواقب وخيمة عند المسلمين عموما، ومن جملة هذه الآثار والعواقب:

١. كان منصب الخلافة يوم توفي الرسول يتحلى بالقدسية والاحترام عند المسلمين، ويصدر عن هذا الاحترام والتقديس طاعة وتبعية للخليفة، ومنحه ما للرسول من صلاحيات، باعتباره الرجل الذي يحتل موقعه، فيقبلون تشريعه للأحكام، كما كانوا يقبلون من النبي صلى الله عليه وآله. ولكن سيرة الخلفاء والأخطاء المتكررة التي صدرت عن هذا المنصب نزعت تلك الثقة من قلوب المسلمين، ولما أحست الأمة بالصراع على هذا المنصب من قبل كبراء المسلمين الطامعين بالخلافة والإمارة، ثم آل الأمر إلى أن يتولى الخلافة من لم يكن له سابقة خير أو ذكر في الإسلام، كيزيد بن معاوية وغيره من بني أمية، أدركت الأمة حين ذاك وبفضل عمل الأئمة الثلاثة علي والحسن والحسين عليهم

السلام[٥٢] إن الخلافة أصبحت ملكاً عضوضاً وإن هؤلاء ليسوا بخلفاء لرسول الله صلى الله عليه وآله.

٢. لما استولى الطامعون على الخلافة بحجة أن قريش هم عشيرة النبي ولا بد لخليفة رسول الله من أن يكون من رهطه، ثم أخذ الخلفاء الطامعون هذا المنصب الذي ظفروا به. استغل الأمويون هذه الدعوى وأخذوا يؤكدون عليها كي يبرروا سلطتهم على الأمة وتولى معاوية الحكم.

وكان لهذه الدعوى آثار سلبية بين المسلمين:

أ. إيجاد النعرة الجاهلية حيث كانت القبائل العربية ترفض في جاهليتها السيادة القرشية عليها، وكانت قريش تحتج بتشرفها وحمايتها للحرم وتتبجح برفادتها للحجيج، ولما جاء الإسلام وأكد على المبادئ الدينية في التفاضل[٥٣] وآخى بين القبائل المتناحرة وبقدر استطاعته حقق بذلك آثاراً إيجابية كبيرة، ولكن المبدأ الجاهلي الذي استخدم في دفع الانصار وغيرهم من أحياء العرب أرجع المعاني العصبية في أذهان العرب، فهذا سعد بن عبادة اقسم أن لايبايع قرشياً، وخرج بعد أحداث السقيفة تاركاً المدينة، وبنفس اللغة الجاهلية تحدث أحد ولاة عثمان على العراق الذي فُتِحَ بسيوف القبائل اليمنية مخاطباً زعماء القبائل اليمانية المتواجدين بالكوفة (إن السواد بستان قريش) مما أثار سخط هؤلاء الزعماء، ولم يعالج عثمان هذه القضية بحكمة بل عاقب هؤلاء الزعماء، مما أجج في صدورهم تلك النعرة الجاهلية[٥٤] حتى أصبح شعور كثير من

---

٥٢ . إن انتزاع الثقة بالخليفة وإن كان أثراً سلبياً، ولكن الأئمة (عليهم السلام) كانوا يستهدفونه لأنه الحل الوحيد الذي كان بأيديهم بعد أن سلبت الخلافة منهم، وأبعدوا عن الحكم. وكان عملا ضروريا كي لا يتبع المسلمون خلفاءهم المنحرفين.

٥٣ . راجع موضوع العصبية القبلية في القسم الثاني من هذا الكتاب.

٥٤ . كان هذا الوالي سعيد بن العاص الأموي والي الكوفية من قبل عثمان والزعماء اليمانيون هم مالك الأشتر وكميل بن زياد وعلقمة بن قيس وعاقبهم عثمان بنفيهم إلى معاوية ليؤدبهم.

القبائل أن الفتوح والغزوات التي يقومون بها إنما هو لتوسيع الملك لقريش بعد أن صار التأكيد على هذا المعنى أمراً يجب أن يقبل به الجميع.

ومن ردود الفعل على هذه الدعوة ما تبناه الخوارج من رفض فكرة انحصار الخلافة بقريش وقالوا بالإمكان أن يتولاها كل شخص بالشروط التي وضعوها لها.

ب ـ اصبح ابناء قريش وأصحاب البيوتات العالية فيها يطمعون في اعتلاء منصب الخلافة وخصوصاً بعد أن أكدت سيرة الخلفاء أنه لا قانون هناك ولا شرط في استلام هذا المنصب، وصار كل من له سابقة مجد أو محمدة خير من كبراء المسلمين أو الصحابة، يطمع في هذا المركز. وأول ما شجعهم على ذلك عملية الترشيح التي تمت من قبل الخليفة الثاني، وأكد طمعهم هذا تولي الخلافة ممن ليست له ميزة وفضيلة يتفرد بها ويمتاز على عموم المسلمين، فضلاً عن صحابة الرسول صلى الله عليه وآله. وتحرك فعلاً بعض الصحابة من القرشيين ونشط المنافقون أيضاً، كل يعمل لحسابه الخاص لنيل الخلافة أو قسطاً منها، وبنفس هذه الروح تحرك أبناء الصحابة والتابعين من قريش في زمن الإمام زين العابدين وكان يشجعهم على ذلك ويدفعهم أكثر ما صارت إليه الخلافة وكيفية استيلاء الأمويين عليها.

فهذان الأثران السلبيان اللذان كانا من نتائج التأكيد على انحصار الخلافة في قريش.

وكان بجانب هذه الآثار السلبية أثر آخر استفاد منه الأئمة عليهم السلام وبنو هاشم لأن هذه الدعوة كانت تدعم حقهم بالخلافة باعتبارهم أقرب الناس رحماً بالرسول وهم عشيرته المقربون، ولقد تحدث الأئمة عليهم السلام بهذا الاجماع وبينوه للأمة، كما أن بعض الهاشميين استغلوا الفكرة لمصالحهم الخاصة[٥٥].

---

٥٥ ـ راجع فصل الأمويين والهاشميين في القسم الثاني من هذا الكتاب.

لذا يمكننا أن ندعي أن الأمة في زمن الإمام السجاد عليه السلام كانت تعيش أزمة الخلافة، وقضيتها كانت تشغل بال الأمة وبأبعاد مختلفة، فالأمويون يدعونها وبيدهم السلطان والهاشميون يطالبون بها أيضاً، وقتل الحسين عليه السلام من أجل انتزاعها واسترداد حكم أبيه وأخيه، وتحرك التوابون ورفعوا شعار الأخذ بثأر أهل البيت وكذلك نشط المختار وقامت حركته على الدعوة إليهم.

وبجانب هؤلاء تحرك ابن الزبير وتوسعت دعوته وشملت أقطار كثيرة من البلاد الإسلامية، وانتشر الخوارج الذين يتبنون رايا ً آخر في الخلافة وشروطها واستولوا على بعض المناطق من البلاد الإسلامية.

هذا كله غير تلك التحركات العسكرية التي تتستر حول فكرة الخلافة كالتمرد الذي قاده مطرف بن المغيرة بن شعبة في أطراف العراق زمن الحجاج بحجة إصلاح أمور المسلمين وإعادة الشورى بينهم لاختيار خليفة من قريش، وكالثورة العراقية الناقمة على الحجاج بقيادة ابن الأشعث الذي ادعى ارتباطه وتمثيله للحسن المثنى بن الإمام الحسن[٥٦]، أو اعتباره الملك الذي يرد السلطة إلى القبائل اليمانية وينقذها من سيطرة القبائل العدنانية عليها.

وأثر هذا الجو المشحون بقضية لخلافة وأزمة حلها، وكيفية المخاتلات والتدابير التي بواسطتها نالها البعض، أثر ذلك ببني هاشم باعتبارهم عشيرة النبي ووارثي زعامته ومكانته. وأدى ذلك إلى نشوء بعض الاتجاهات العامة فيهم والبعيدة عن الولاء للأئمة المعصومين عليهم السلام بأمل استرداد الحكم ونيل ما استأثر به غيرهم من بيوتات قريش، واستفاد بنو هاشم من ذكرهم

---

٥٦ ـ جاء في كتاب عمدة الطالب في أنساب أبي طالب ص ١٠٠ (كان عبد الرحمان بن الأشعث قد دعا إلى حسن المثنى وبايعه فلما توارى الحسن حتى دس إليه الوليد السم) والصحيح أن سليمان بن عبد الملك هو الذي دس إليه السم.

الحسن وتاريخهم المجيد وقربهم من رسول الله صلى الله عليه وآله في السعي لمصالحهم الخاصة.

فأخذ العباسيون يعملون لحسابهم الخاص[٥٧].

وأخذ الحسنيون يعملون لحسابهم الخاص[٥٨].

وأخذ محمد بن الحنفية وابنه هاشم يعملون لحسابهم الخاص[٥٩].

ونشأت هذه الجهات في بني هاشم بعد قتل الحسين عليه السلام وابتعاد الإمام زين العابدين عن مسرح الأحداث وانزوائه وانشغاله بالعبادة.

---

٥٧ . جاء في كتاب أنصار الحسين لشمس الدين ص ١٨٧ (يبدو لنا أن العباسيين قرروا أن يعملوا لحسابهم الخاص في وقت مبكر ولم تكن علاقتهم بالعلويين علاقة شكلية انتهازية، فذكر استيلاء عبد الله بن عباس على بيت المال البصرة حينما كان واليا عليها من قبل الإمام علي (عليه السلام) ونذكر انحياز عبيد الله بن العباس إلى معسكر معاوية استجابة لإغراءات معاوية وتركه الإمام الحسن وقد رفضوا الاشتراك بثورة الحسين (عليه السلام) مستفيدين في الوقت نفسه كونهم هاشميين مضطهدين من قبل النظام.

٥٨ . جاء في مقدمة كتباها محمد زين الدين لكتاب «الحسنيون في التاريخ» صفحة ٥ قوله (وعلى كل فقد كثر الناهضون من آل الحسن وأعود هنا وأقول لست أدعي أن هذه النهضات كلها مما يعترف بها الدين وإن التاريخ لم ينصف هذه النهضات).

٥٩ . هناك تفسيران يذكرها الباحثون لموقف محمد بن الحنفية من الإمام عليه السلام وهما غير ما قيل عنه من أنّه ادعى الإمامة وخاصم الإمام السجاد عند الحجر الأسود فأذعن ابن الحنفية لما شهد به الحجر من إمامة السجاد عليه السلام.

التفسير الأول: أن ابن الحنفية كان ذا سوابق مجيدة وقابليات كبيرة، وباعتباره ابن الإمام علي عليه السلام وأحد زعماء بني هاشم فاحتل مركزا مرموقا عند شيعة أبيه وأخيه، ولما انزوى الإمام السجاد وانصرف عن مشاغل الدنيا إلى العبادة توجهت الشيعة إليه وارتبطت به على أثر مركزه ونشاطه العام، ثم استثمر هذا الوجود والتأييد ابنه أبو هاشم الذي كان ذا قابليات كبيرة جدا وأخذ ينسج خيوط العمل السري حتى سمه سليمان بن عبد الملك.

التفسير الثاني: أن محمد بن الحنفية تحرك بوحي من الإمام السجاد وبتكليف منه وأنه أناط به قيادة الشيعة الثائرين والمتحركين لقوله (يا عم لو أن عبد زنجيا تعصب لنا أهل البيت لوجب على الناس مؤازرته وقد وليتك هذا الأمر فاصنع ما شئت).

ومات الخط الثالث بعد اغتيال زعيمه أبو هاشم بن محمد بن الحنفية فأضيفت جهوده إلى الخط الأول (أي العباسيين) [٦٠] واستثمروها مع جهودهم، وأخذوا يواصلون عملهم ضد الأمويين حتى نشأت دولتهم.

أما الخط الثاني:. الحسنيون فقد ظهروا على مر التاريخ بثوراتهم المتكررة ضد الدولة، والدعوة لأنفسهم بأنهم أحق بالخلافة والإمارة باعتبارهم أقارب النبي وشجعان أهل بيته.

أما الإمام زين العابدين عليه السلام وهو أحد كبار بين هاشم وابن زعيمهم الحسين بن علي عليه السلام فكان موقفه يختلف عن غيره لأنه كان يمثل زعامة حقّةً للوجود الأصيل للشيعة، ومسيرته عليه السلام الحلقة المكملة لعمل الأئمة المعصومين عليهم السلام الذين سبقوه، وجزء مترابط من أطروحة السماء لهذه الأرض فهو لا يخرج عن مستلزمات هذه المسيرة ولا يحيد عنها أبداً.

ولو حاولنا أن نتفحص نظرة السلطة الأموية آنذاك عن الإمام وفق هذه الأمور التي سبق ذكرها من قضية الخلافة والنزاع حولها، ومن نتائج الصراع الذي كان يمارسه الأئمة الثالثة الأوائل مع السلطة ونهوض الحسين عليه السلام بثورته ضد يزيد، وما حل من اضطراب سياسي ونزاع حول الإمارة والحكم من قبل ابن الزبير وغيره من الحركات المسلحة، ومن المكانة التي كان يحتلها بنو هاشم بين المسلمين.

كل تلك الأمور كانت تستدعي من الدولة أن تنظر إلى الإمام نظرة الخوف وتترقب منه ما تترقب من الرجال الكبار والقادة العظماء وخصوصاً وهو الابن الوحيد لبطل كربلاء ولزعيم بني هاشم.

---

٦٠ ـ يذكر المؤرخون أن أبا هاشم لما سمه سليمان بن عبد الملك وكان في طريق عودته من الشام إلى الحجاز مات في الحميمية وأخذ محمد بن عبد الله بن عباس أسرار الدعوة منه وأسماء الدعاة وكان محمد هذا زعيم بني العباس وصاحب الدعوة فيهم.

فالسلطة كانت تتوقع من الإمام وتحمل في حقه عدة أمور:

- فقد يتحرك للمطالبة بثأر أبيه المظلوم.
- وقد يتحرك ضد الدولة الظالمة والسلطة الغاشمة.
- وقد يدعو لنفسه ويطالب بخلافة المسلمين.

كل تلك الأمور متوقفة من الإمام للاعتبارات التي تملكها شخصيته وتاريخه المجيد[٦١].

وما كان يعمق توجس الدولة وقلقها من الإمام بالخصوص ومن أهل البيت عموماً ما كانت تنتظره الشيعة والموالون من أئمتهم حيث تعودوا آن يكون الإمام مدافعاً عن حقوق المسلمين مضحياً لدفع الظلم والتعسف عنهم.

ثم إن الثورات المسلحة التي كانت تقوم بها بعض جموع الشيعة وانتفاضاتهم ضد السلطة والدعوة لأهل البيت كما في حركة التوابين وحركة المختار، كانت تؤدي إلى تأهب السلطة من الإمام عليه السلام وتتوقع منه ما تتوقعه من آبائه، ولذلك نجد أن ابن الزبير لم يكن يصدق أن تحرك التوابين كان بمعزل عن الإمام فوضع العيون[٦٢] حول الإمام ليكشف جسور الاتصال بينه وبينهم.

وخلاصة القول أن نظرة التوجس والترقب والخوف هي التي كانت تكتنف شخصية الإمام زين العابدين حين استلهم مهام الإمامة بعد استشهاد أبيه في كربلاء.

ولكن لم يصدر من الإمام أي شيء من هذا القبيل، لا الذي توقعته الدولة ولا الذي اعتادته الشيعة من أئمتها، لأن مرحلة جديدة قد بدأها الإمام من

---

٦١ ـ يؤكد هذا المعنى قوله مسرف بن عقبة قائد الجيش الأموي بعد واقعة الحرة يمدح الإمام لأنه لم يشترك في ثورة المدينة (أنه الخير الذي لا شر فيه مع موضعه من رسول الله) فهذا النص يوضح أن منزلته وقرابته كانت تهيئه لأن يتصدر بعض النشاطات المعادية للدولة.

٦٢ ـ راجع كتاب رسالة الحقوق لعبد الهادي المختار ص ١٠٢ من سلسلة حديث الشهر.

المسيرة الإسلامية ـ كما تقدم ـ وتقوم هذه المرحلة على تغيير أسلوب العمل ويتخلص بترك التحرك والصراع السياسي والعسكري ضد الدولة والعمل على نشر علوم أهل البيت وإيجاد الكتلة الشيعية الصالحة التي تحتضن الإسلام وتتولى بدورها مقاومة الانحراف الفكري الذي دب في جسم الأمة.

وسعى الإمام لتحقيق مستلزمات ومتطلبات هذه المرحلة الجديدة وخلق الأرضية والأجواء المناسبة لعمل الأئمة بعده، ومن جملة ما سعى إليه:.

١ـ تغيير ما تعودت عليه الشيعة من التعامل مع أئمتها وما كانت تنتظره منهم من النهوض بالسيف ومقارعة السلطان.

٢ـ اطمئنان السلطة منه كي يمارس عمله في بناء الكتلة الشيعية ونشر علوم أهل البيت وتهيئة الأجواء المناسبة لعمل الأئمة من بعده، بعيداً عن عيون الدولة ومضايقاتها.

٣ـ المحافظة على موقف الأئمة من رفضهم للسلطة المنحرفة وتوضيح هذا الموقف للأمة باعتبارها خلافة غير شرعية، يرفضها الوجود الإسلامي الأصيل ـ الشيعة ـ[٦٣].

وكانت هذه الأهداف من اصعب الأمور تحقيقاً، باعتبارها تتضمن مهمات صعبة المنال كما هو الحال بين هدفين متعارضين. فهو بنفس الوقت الذي يريد أن تطمئن الدولة منه يريد أيضاً أن يعلن للأمة استنكاره للدولة ورفضه لسلطانها.

وكذلك عانى الإمام صعوبة بالغة في إقناع الشيعة بإمامته وهو يريد بنفس الوقت تغيير ما تعودت عليه من أئمتها.

---

٦٣ ـ حرص الأئمة عند بنائهم للوجود الشيعي على أن يكون وجوداً يرفض الخلافة اللاشرعية ويؤمن بأحقية أهل البيت وخلافتهم فقط. وبذلك يحافظون على هذا الوجود من التأثر بهذه الخلافة والانحراف معها بعيدا عن الإسلام.

ولكن الإمام ومع ذلك كله استطاع تحقيق هذه الأهداف وعمل بكل وسيلة ونشاط ودأب لاستكمال دوره في الأمة.

ومن الأعمال التي استعان بها الإمام لتحقيق مهماته هذه هي:.

١. ترك التحرك السياسي الذي كان يقوم به الأئمة من قبل باعتبار الانتهاء من المرحلة الأولى والتي كانت تتطلب ذلك.

٢. الانفصال عن كل التحركات السياسية والعسكرية ضد الدولة وخصوصاً الشيعية والتي تدعي الولاء لأهل البيت، حيث تبرأ من المختار ورفض دعوة التوابين.

٣. الانزواء والانشغال بالعبادة وانصرافه عن الدنيا.

بالإضافة إلى أعمال أخرى كبكائه على أبيه وإظهار الحزن ومصانعة الدولة وشكر الخلفاء على ما يسدونه إليه من نفع، كل تلك الأعمال إنما كانت من أجل تحقيق الأهداف التي سبق ذكرها.

فظاهرة البكاء على أبيه كانت من جملة ما يستهدفه رفضه للسلطة الحاكمة واتهامها بالظلم.

وكانت مسألة مصانعة الدولة ومهادنتها من أجل أن يعمق اطمئنان الدولة منه ولكي تتبدل تلك النظرة، وتتبدد تلك الأوهام التي كانت تتوقعها السلطة. فهو حينما يكتب ليزيد ويعلن له أنه لم يشترك في ثورة المدينة، إنما كان يدفع عن نفسه القتل ويحقق ما يريده من اطمئنان السلطة منه. ثم ما قام به من شكره ليزيد لتوصية مسرف بن عقبة قائد جيش الأمويين بالحرة برعايته، ودفع القتل عنه، وكذلك شكره لعبد الملك بن مروان لمنعه الحجاج من قتله.

فهذه الأعمال ومثلها مع السلطة كانت ضرورية في تحقيق مهمته ولتعبيد الطريق أمامه وأمام الأئمة بعده في العمل وسط شيعتهم.

وكانت عمليات الرفض للدولة وللخلافة عدم الاهتمام بالخلفاء والزعماء حينما كانوا يأتون للحج، محاولاً اجتنابهم، وعدم الاتصال بهم، مما يثبت لدى

عموم الحجيج بعده عنهم وفضه إياهم، حتى إنه كان يمتنع عن الوصول إليهم أو طلب حاجة منهم.

من ذلك ما يروى من عدم اهتمامه بعبد الملك أثناء الطواف مما جعل عبد الملك يغضب لذلك ويدعوه ليعاتبه وليتضح له سبب عدم الاكتراث به وهو الخليفة[٦٤]. ورفضه وامتناعه عن قضاء حاجات المؤمنين والتشفع لهم عند السلطان، من ذلك، أن عبد الملك كان يصل الفرزدق الشاعر المحب كل سنة بألف دينار فحرمه تلك السنة فشكى ذلك إلى علي بن الحسين عليه السلام وسأله أن يكلم عبد الملك وهو يعلم أنه لا يرده لو سأله ولكن الإمام امتنع وقال للفرزدق (أنا أصلك من مالي بمثلٍ الذي كان يصلك وصن عني كلامه)[٦٥]. فقال يا بن رسول الله لا رزأتك شيئاً وثواب الله عز وجل أحب إلي.

وكان عليه السلام يرفض أن ينقل نزاعه مع بعض أقاربه إلى الحكام حيث طلب البعض منه ذلك.

فكانت هذه الأعمال بالإضافة إلى المواقف التي لم تصلنا كما هو أغلب الظن، كلها تشكل عملية الرفض للحكم القائم آنذاك.

نجاح الإمام

هل نجح الإمام في علاقته مع الدولة؟ أي هل تمكن الإمام من انتزاع ثقة السلطة والخلفاء به في الوقت الذي كان يحتفظ به في الوقت الذي كان يحتفظ فيه بموقفه في رفض الخلافة غير الشرعية القائمة آنذاك.

ونجيب، بالتأكيد على نجاح الإمام في رسم هذه العلاقة وفي صيغتها وفق الأهداف التي كان ينبغي تحقيقها، فهو عليه السلام قد أعلن للأمة رفضه للسلطة وابتعاده عن التفاعل معها من قريب أو بعيد.

---

٦٤ ـ راجع ظاهرة البكاء في القسم الثالث من هذا الكتاب.
٦٥ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٢٥ ـ ٨.

ولقد أحست الأمة بهذا الموقف واستشعرت هذا الرفض، ولذلك كان الكثير من المسلمين يعتقدون أن مسرف بن عقبة حينما توجه إلى المدينة بجيشه الأموي الكبير (لايريد غير علي بن الحسين)[٦٦].

وهذه المقالة التي كانت تتناقلها الألسن، لتدل دلالة واضحة على شيوع رفض الإمام للسلطة وموقفها السلبي ـ بالمقابل ـ منه.

والحدث الآخر ما لمسه الحجاج من حياة الإمام وأنه أصبح يشكل خطراً على الدولة برفضه لها وحب المسلمين إليه، فكتب إلى عبد الملك (إن أردت أن يثبت ملكك فاقتل علي بن الحسين)[٦٧]

أما الأحداث التي تبين نجاح الإمام في انتزاع ثقة الدولة به واطمئنانها منه فكثيرة منها:.

ما في المصادر التاريخية من أن مسرفاً بعد أن قتل وأفزع وأباح المدينة بجيشه الغاشم جاء واليه بعلي بن الحسين فقال له (أوصاني أمير المؤمنين ـ يزيد ـ ببرك وتمييزك من غيرك فجزاه خيراً ثم قال أسرجوا له بغلتي، وقال له انصرف إلى أهلك فإني أرى أن قد أفزعناهم وأتعبناك بمشيك إلينا، ولو كان بأيدينا ما نقوى به على صلتك بقدر حقك لوصلناك والتفت لجلسائه قائلاً هذا الخير الذي لا شر فيه مع موضعه من رسول الله)[٦٨].

ومنها ما جرى في مقابلة مع عبد الملك حين أعجب بعبادته وتركه للدنيا وانصرافه عن مشاغلها وانتهت المقابلة بمدحه الإمام (وأقبل يسأله عن حاجته وعما قصد له فشفعه فيمن شفع ووصله بمال)[٦٩].

هذه الأحداث وغيرها كما سيأتي تؤكد لنا نجاح الإمام في صياغة علاقة بالسلطة وكانت مجموعة أعماله ومواقفه معها كلها من أجل المحافظة على

---

٦٦ ـ كشف الغمة في معرفة الأئمة ج٢ أحوال الإمام ص ٣٠١.

٦٧ ـ البحار جزء ٤٦ باب ١٩ ـ ٢.

٦٨ ـ كشف الغمة ج٢ أحوال الإمام ص ٣٠١.

٦٩ ـ البحار ج٤٦ باب ١٠ ـ ٥.

نفسه ودفع القتل عنه وتحقيق الأهداف المرحلية التي كانت بعاتقه والتي تتطلبها مهمته القيادية للشيعة.

الإمام والقوى المعارضة للدولة

يمكننا أن نحصر الحركات التي عارضت الدولة الأموية وتحركت ضدها في زمن الإمام السجاد بثمان حركات مسلحة هي:

- ثورة المدينة في أيام حكم يزيد سنة ٦٢هـ وقضى عليها الجيش الأموي بقيادة مسلم بن عقبة أو مسرف بن عقبة.
- حركة التوابين تأسست سنة ٦١هـ وقتل قائدها وأكثر رجالها في معركة عين الورد سنة ٦٤هـمع جيش الشام بقيادة عبيد الله بن زياد.
- دعوة المختار الثقفي الذي بدأ نشاطه سنة ٦٤هـ واستولى على الكوفة وقتله مصعب بن الزبير مع أصحابه سنة ٦٧هـ.
- حركات الخوارج التي بدأت سنة ٦٠هـ وما قبلها وتم القضاء على جميع فصائلها عسكرياً سنة ٧٨هـ.
- التمرد الذي قاده عبد الله الجارود قرب البصرة سنة ٧٦هـ بسبب ظلم الحجاج وقضى عليه في سنته.
- التمرد الذي قام به مطرف بن المغيرة بن شعبة سنة ٧٧هـ بحجة إرجاع الخلافة شورى بين المسلمين، وقضى عليه الحجاج في سنته.
- الثورة العراقية التي قادها ابن الأشعث سنة ٨٢هـ وقضى عليه الحجاج وانتحر ابن الأشعث سنة ٨٦.

ولم يكن للإمام مواقف بارزة من كل هذه الحركات والنشاطات المعادية للدولة لأنه قد تبنى ـ كما سبق بيانه ـ مسلكاً يرفض فيه كل تحرك مناهض للسلطة ويبتعد عن كل نشاط معاد لها.

وكان سلوكه العبادي، وحياته الروحية الفريدة، تعينه على مواقفه هذه وتبرز للأمة وللسلطة ابتعاده عن هذه القوى المسلحة، ولم تنقل لنا المصادر التاريخية مواقف محددة، يمكن أن تشكل مبدأ أو قاعدة تبناها الإمام اتجاه هذه الحركات المسلحة، غير رفض الاشتراك معها والابتعاد عن دعمها.

وكان هذا المبدأ هو المنسجم مع دوره ومتطلبات مرحلته، لأن كل موقف مهما كان بسيطاً من هذه القوى المسلحة سيجره إلى سلسلة من المواقف المحرجة التي هو في غنى عنها ولا تنسجم مع دوره بل تعرض حياته ووجوده للخطر المحتم، وخصوصاً في تلك الأيام العصيبة والمحن السياسية الخانقة.

وهناك اعتباران كانا يقتضيان من الإمام أن يتخذ موقفاً من بعض هذه الحركات المعادية للسلطة، وأن يحدد ويوضح علاقته بها ولولا وجود أحد هذين الاعتبارين لما عثرنا على أي موقف للإمام تجاه هذه النشاطات المسلحة، وهذان الاعتباران هما:-

١. القرب المكاني لهذه الحركات من الإمام كما هو الحال في ثورة المدينة وحركة ابن الزبير، فكان الإمام يضطر لأن يوضح موقفه منها لأنه يقع في دائرة تأثيرها، ويتحمل شاء أو أبى تبعاتها ونتائجها، فأعلن عن عدم اشتراكه بثورة المدينة وبين أنه متخوف من فتنة ابن الزبير، كما سيأتي بيانه.

٢. القرب المبدئي لهذه الحركات من الإمام، كما هو الحال في حركة التوابين ودعوة المختار باعتبارهم يمثلون اتجاهاً شيعياً يوالي أهل البيت، ويصدرون بحركتهم من هذا الولاء، فالتوابون إنما خرجوا طلباً بدم الحسين عليه السلام واستهدفوا إعادة الأمر إلى أهل بيت النبي، والمختار أيضاً قامت دعوته بنفس تلك الروح الموالية وجمع أنصاره تحت شعار (يا لثارات الحسين) وكان لابد لهاتين الحركتين من أن تحتك بالإمام ولو بصورة غير مباشرة، وأن تستثمر الارتباط، بل كان من المعقول جداً أن يتصور البعض وقوف الإمام خلف هذه التحركات كما اعتقد ابن الزبير ذلك وجعل العيون على الإمام عليه

السلام فكان لابد للإمام من أ، يحدد موقفاً من هاتين الحركتين فرفض حركة التوابين وتبرأ من دعوة المختار.

أما الحركات الباقية فليم تنقل لنا المصادر أي موقف للإمام تجاهها لا رفضاً ولا تأييداً، وذلك لبعدها المكاني والمبدئي من الإمام.

الإمام وثورة المدينة

أما موقف الإمام من ثورة المدينة، فيمكن أن نفهمه إذا علمنا أن سكان المدينة كانوا جميعهم يتحملون تبعات هذه الثورة بل كان الإمام من أشدهم تحملاً لنتائجها الوخيمة لأنها ثورة تنبثق عن مدينة جده، وهي من أول الثورات ضد يزيد وحكومته اللاشرعية بعد نهضة الحسين عليه السلام التي كانت الأمة لا تزال تعيش مرارتها وفعاليتها فكان من المحتمل جداً أن يتوهم الكثيرون اشتراك الإمام بهذه الثورة منادياً بشرعية الخلافة وسائراً على نهج أبيه مطالباً بثأره ودمه.

ولعل ذلك التصور هو الذي دفع بعضهم لأن يعتقد أن جيش الشام المتوجه إلى المدينة لا يريد إلا علي بن الحسين عليه السلام.

ولم يكن أهل المدينة بحاجة إلى أن يوضح لهم الإمام عدم اشتراكه معهم، لأنهم كانوا يعرفون حياته الخاصة التي عاشها بعد رجوعه من كربلاء حيث اعتزلهم وسكن بيتاً يتعبد به، ويتضرع لربه[٧٠].

بل ليس من البعيد جداً أنهم لم يعولوا على اشتراكه معهم كبير فائدة، حيث لا يرون فيه ميزة تفوقهم، وفيهم أصحاب النبي من المهاجرين والأنصار.

ولا بد للإمام أمام هذا المحنة من أن يوضح موقفه لدى السلطة العازمة على القضاء على هذه الثورة وتأديب أهلها، ولابد أن يكون الموقف واضحاً لا لبس فيه لأن النتائج الوخيمة المترتبة على فشل الثورة كانت كبيرة وخطيرة،

---

٧٠ ـ راجع كتاب فرحة الغري ص ٤٣ طبعة ١٩٦٣ النجف.

هذا من جهة ومن جهة أخرى لم تكن هناك فترة كافية لأن تتعرف الدولة على حياة الإمام وابتعاده عن تلك النشاطات المسلحة حيث لم تمض أكثر من سنة على قتل الحسين عليه السلام حتى ثارت المدينة ضد الأمويين.

وجاءت المصادر تقول أن الإمام كتب رسالة إلى يزيد يبين فيها أنه لم يدخل فيما دخل فيه الناس، أي أنه يوضح للسلطة أنه لم يشترك في هذه الثورة من أجل أن لا يتحمل تبعاتها الوخيمة. أو أن يكون أحد ضحايا هذه الحركة الفاشلة، وجاء في تاريخ الطبري أن الإمام عليه السلام ابتعد في أيام الثورة وسكن جنب المدينة، وبعث بولده إلى الطائف برفقة عائشة بنت عثمان بن عفان وهي زوجة مروان بن الحكم، الذي أودع عياله عند الإمام، وبهذا العمل أكد الإمام للدولة ابتعاده واجتنابه الناس أيام الثورة، ولعل رسالة الإمام ليزيد مع موقفه الأخلاقي من عوائل بني أمية حينما طردهم أهل المدينة منها هما اللذان حفظا دمه[٧١] وكرامته[٧٢]، من شراسة الجيش الأموي وقائده السفاك.

الإمام وحركة ابن الزبير

أما موقف الإمام ن حركة بن الزبير فمن المعروف عن هذه الحركة معاداتها لأهل البيت، أما قائدها عبد الله بن الزبير فكان من أشد المحرضين ضد الإمام علي عليه السلام واشترك مع الناكثين في واقعة الجمل، وترك ابن الزبير الصلاة على النبي معللاً ذلك أن الصلاة عليهم تشمخ من أنوف أبنائه، وامتنع عموم بني هاشم عن بيعته وأراد ابن الزبير أن ينتقم منهم بإحراقهم

---

٧١ ـ جاء في تاريخ الطبري أن مروان بن الحكم أراد أن يشفع إلى علي بن الحسين (عليه السلام) حين أتي به إلى مسرف بن عقبة قائد الجيش الأموي في وقعة الحرة ولكن مسرفا رد شفاعته وبين أن علي بن الحسين لا يحتاج إلى شفاعة لأن يزيد أوصاه به وبرعايته.

٧٢ ـ كان مسرف بن عقبة يأخذ البيعة من أهل المدينة على أنهم عبيد خول ليزيد يفعل بهم ما يشاء، ومن امتنع ضربت عنقه إلا من الإمام فأخذ البيعة على أنه أخ له.

لولا إنقاذ أصحاب المختار لهم، وكان محمد بن الحنفية يتصدر بني هاشم في معارضته لابن الزبير[٧٣].

ولم تنقل المصادر التاريخية شيئاً عن علاقة الإمام مع ولاة ابن الزبير على المدينة ولا عن مبايعته أو عدمها لهم، وكل الذي نعرفه عن الإمام أنه كان يتخوف على نفسه من فتنة ابن الزبير وأعلن ذلك التخوف إلى بعض أصحابه[٧٤].

ولعل السبب في خوفه المناوشات المسلحة التي دارت بين ابن الزبير والدولة الأموية وما يترتب على ذلك من اضطراب الأمن وإراقة الدماء وخصوصاً في المدينة التي تصاعد عليها الصراع بين الأمويين والزبيريين لأهمتها المعنوية عند المسلمين، أو أنه كان يتخوف من تبعات ما كان يحيط به ابن الزبير من العيون والجواسيس ليعلم ارتباطه بشيعته وحقيقة رفضه للتوابين وغيرهم[٧٥].

أما موقفه من حركة التوابين فهو أنه قد رفض ارتباط هذه الحركة به مع أنهم يعدون من أطهر الحركات الشيعية تاريخياً، حيث لم يدفعهم إلا الولاء لأهل البيت والندم على تفريطهم في نصرة الحسين وكانوا جادين في حركتهم

---

٧٣ . جاء في تاريخ اليعقوبي الجزء الأول ص ٢٦١ (وأخذ ابن الزبير محمد بن الحنفية عبد الله بن عباس وعشرين رجلا من بين هاشم ليبايعوا له، فامتنعوا فحبسهم في حجرة زمزم، وحلف بالله الذي لا إله إلا هو ليبايعن أو ليحرقنهم بالنار، فكتب محمد بن الحنفية إلى المختار بن أبي عبيد، فوجه إليهم المختار أبا عبد الله الجولي في أربعة آلاف راكب فقدم مكة فكسر الحجرة، ولم يكن بابن الزبير قوة على بني هاشم وعجز عما دبره فيهم أخرجهم من مكة. وأخرج محمد بن الحنفية إلى ناحية رضوى وتحامل عبد الله بن الزبير على بني هاشم تحاملا شديدا، وأظهر لهم العداوة والبغضاء حتى بلغ ذلك منه أن ترك الصلاة على محمد في خطبته فقيل له لم تركت الصلاة على النبي فقال إن له أهل سوء يشرئبون لذكره ويرفعون رؤوسهم أن سمعوا به.

٧٤ . كشف الغمة ج٢ ص ٢٩٩.

٧٥ . جاء في كتاب (رسالة الحقوق) لعبد الهادي المختار ص ١٠٢ ((إن ابن الزبير قد أحاطه (للإمام) بجيش من عيونه وأرصاده خوفا من أن يجتمع الناس عليه لو طلب الخلافة...)).

مخلصين في نهضتهم، ولكن دور الإمام كان يحتم أن لا يعود إلى زعامة مسلحة أو أن يرتبط بنشاط معاد للدولة.

وذلك لايعني أن الإمام كان يرفض حركتهم ويخطئ نهضتهم جملة وتفصيلاً، فليس من المستبعد أنه كان عليه السلام يبارك نشاطهم ويدعم موقفهم، ولكن بصورة غير مباشرة، كما جاء في قوله لعمه محمد بن الحنفية (يا عم لو أن عبداً تعصب لنا أهل البيت لوجب على الناس مؤازرته وقد وليتك هذا الأمر فاصنع ما شئت)[٧٦].

أما موقفه من دعوة المختار وحركته المسلحة فلم يصلنا، إلا أنه تبرأ منها في مسجد رسول الله[٧٧]. وان المختار بعد أن قتل عبيد الله بن زياد بعث برأسه مع رأس عمر بن سعد إلى الإمام فلما نظر الإمام إليهما خر ساجداً وقال الحمد لله الذي أدرك لي ثأري من أعدائي وجزى الله المختار خيراً)[٧٨].

ولا نجد بين هذين الموقفين أي تناقض فإن التبرؤ من دعوة المختار يعني آنذاك عدم ارتباطه واشتراكه بهذه الحركة المسلحة وأنه لا يحتمل من تبعاتها ونتائجها شيئاً فهو ليس بزعيم روحي لهم ولا قائد موجهاً لحركتهم.

---

٧٦ ـ المختار الثقفي الدجيلي ص ٥٩.

٧٧ ـ رجال الكشي ترجمة أبو عبيدة المختار.

٧٨ ـ رسالة الحقوق لعبد الهادي المختار وتاريخ المسعودي. أما في تاريخ المسعودي فيتحامل على دعوة المختار ويقول (كتب كتابا إلى علي بن الحسين يريد أن يبايع له ويقول بإمامته ويظهر دعوته وانفد إليه مالا كثيرا فأبى علي أن يقبل ذلك منه أو يجيبه عن كتابه وسبه على رؤوس الملأ في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله) وأظهر كذبه وفجوره، ودخوله على الناس بإظهاره الميل إلى آل أبي طالب، فلما يئس المختار من علي بن الحسين (عليه السلام) كتب إلى عمه محمد بن الحنفية يريده على مثل ذلك فأشار عليه علي بن الحسين (عليه السلام) أن لا يجيبه إلى شيء من ذلك، فإن الذي يحمله على ذلك اجذابه لقلوب الناس وتقربه إليهم بمحبتهم. وباطنه مخالف لظاهره في الميل إليهم والتولي لهم والبراءة من أعدائهم، والواجب عليه أن يشهر أمره، ويظهر كذبه على حسب ما فعل هو، وأظهر من القول في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله))).

وهذا الكلام من المسعودي إنما هو جزء من حملة كبيرة ضد المختار لها صداها في المصادر التاريخية بصورة عامة.

وأما دعاؤه للمختار فباعتباره أنه أسدى إليه خدمة وحقق له أمنية طالما كان ينتظرها.

فدعاؤه للمختار كان يمثل موقفاً شخصياً به، وليس بموقف سياسي يريد به تأييداً لجهة معينة.

وهناك تفسير آخر يمكن أن يذكر هنا نستمده من بعض الروايات، وهو أن الإمام كان له موقفان من دعوة المختار، الأول هو في بداية الحركة وقبل أن تتوسع الدعوة، والثاني بعد أن ظهر في الدعوة ما لا يحبه الإمام فقد جاء في ترجمة المختار في رجال الكشي (أن المختار أرسل إلى علي بن الحسين عليه السلام بعشرين ألف دينار فقبلها وبنا بها دار عقيل بن أبي طالب ودورهم التي هدمت، قال ثم أنه بعث إليه بأربعين ألف دينار بعد ما أظهر الكلام الذي أظهره فردها ولم يقبلها)[٧٩].

وجاء أيضاً في ترجمته (أنه بعث إليه بهدايا من العراق فلما وقفوا على باب علي بن الحسين دخل الآذن يستأذن لهم فخرج إليهم رسول الإمام فقال أميطوا عن بابي، فإني لا أقبل هدايا الكذابين ولا أقرأ كتبهم فمحوا العنوان وكتبوا المهدي محمد بن علي)[٨٠].

وقد ظهرت في حياة الإمام السجاد ظواهر أربع لم تبرز في حياة باقي الأئمة مثلما كانت عليه في الإمام الرابع وهي تمثل وسائل عمل استخدمها الإمام لتحقيق أهدافه الشريفة وهي:

١. ظاهرة البكاء.

٢. ظاهرة التعبد.

٣. ظاهرة الإعتاق.

٤. ظاهرة الإنفاق.

---

٧٩ ـ اختيار معرفة الرجال ص ١٢٨.

٨٠ ـ اختيار معرفة الرجال ص ١٨٦.

١ـ ظاهرة البكاء

مأساة كربلاء واستشهاد الحسين عليه السلام وأصحابه، وخروج عياله سبايا يساقون من بلد إلى بلد واقعة لم تكن ليومها فحسب وإنما للأجيال التي ستعقبها وتخلفها، لأنها عملية تغييرية لم يقدر لها أن تهضم لوقتها بل وحتى لجيلها ولم تكن لتفهم إلا بعد أجيال حيث يقتطفون ثمار تلك العملية البطولية.

وكان الحسين عليه السلام وهو في أدائه لدوره في كربلاء مستبصراً مستبشراً لما يقوم به لأنه يؤدي بإتقان وينفذ مهمة السماء المكلف بها ويعلم أنه سيكتب بدمه حياة للإسلام، فقدم نفسه لتذبح بدلاً ن أن يذبح وكان مستبشراً هو وأصحابه لأن يقدم على رب رؤوف رحيم ويتبوؤن من الجنة حيث يشاؤون مع الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين.

وارتفعت الأصوات في المعسكر (قتل الحسين) وبشروا الأمير عمر بن سعد بقتل الحسين عليه السلام ووصل صدى ذلك النداء إلى حرم الحسين وعياله. والإمام السجاد عليه السلام جليس الفراش لا يقدر على النهوض من شدة مرضه وما أصابه من الإعياء.

وكان هذا النداء هو ساعة استلام الإمام زين العابدين مهمة الإمامة بعد أبيه وسط تلك الجيوش المحيطة به وبعياله، والتي تطمع الآن أن تسلب عترة النبي بعد أن قتلوا ولده، وتقلد الإمام السجاد هذه المسؤولية المقدسة وسط تلك الأشلاء المقطعة والأجساد المضرجة والنساء والأيتام التي فقدت أبناءها وآباءها وأبرارها.

وكانت زينب عليها السلام عمة الإمام وشريكة الحسين عليه السلام في نهضته تفهم البعد الذي يعمل له الحسين عليه السلام وتدرك أن مهمته وأهدافه ليست آنية قريبة المنال بل هي كبيرة وعظيمة وبعيدة تتناسب مع عظمة الحسين عليه السلام وكبر تضحيته ومما يدلنا على عظمة الحوراء زينت عليها السلام، أنها كانت مستعدة لأن تؤدي ما عليها من مسؤوليات أو

تضحيات مهما كانت كبيرة وشديدة، وتلمس عظمتها حينما أقبلت على الإمام السجاد تسأله عن الموقف لما اشتعلت النيران في خيام ورحل الحسين عليه السلام بعد قتله، وهل تبقى مع العيال في الخيام يحترقون أم تفعل شيئاً آخر.

تسأله باعتباره إمامها، والشخص الوحيد العارف بأبعاد الثورة وتفاصيلها ولتعلم منه الحاجة إلى المزيد من التضحيات، أو الاكتفاء بما قدم، وأجاب الإمام أن فروا بوجوهكم على الفلاة.

ويبدو أن هذا السؤال من العمة وجوابه عليه السلام هو أول ما مارسه الإمام من مهام الإمامة، وأول جواب يجيبه بصفته المقدسة كإمام زمانه.

وتولى الله تعالى رعاية الإمام السجاد والمحافظة عليه وسط تلك الحملة الهوجاء، ومن بين تلك النفوس الحاقدة والأيدي الشرسة.

وأراد عمر بن سعد أن يقتله بعد قتل أبيه، وأراد غيره من أفراد الجيش قتله حتى إن عبيد الله بن زياد استغرب لما رأى علي بن الحسين أمامه وكيف ولماذا لم يقتل. ثم أراد يزيد قتله أيضاً ولكن الله الذي تكفل لهذا الدين أن يبقى وان يظهره على الدين كله هو الذي كفل الإمام بالحفظ والتسديد.

وكان الإمام يحترس في كلامه ويحتاط في تصرفاته حفاظاً على نفسه حينما أُخذ أسيراً بيد أعدائه، فالذين قتلوا أباه بالأمس يرغبون بأن يلحقوه به، وسار الطريق بين الكوفة والشام ولم يكلم أحداً من المكلفين بسوقهم. سار والقيد في يده والجامعة في رقبته وهم على أعقاب الإبل، ووصلوا الشام ودخلوا قصر ملكها. وكان فيها ما كان من الألم والمآسي وانتهت هذه الأجواء الحرجة والأيام العصيبة بأن رحل الإمام ومعه أيتام الحسين ونساؤه إلى المدينة ليمارس دوره وليقوم بمهمته المقدسة وليجعل من هذا الحدث الذي كان يظن رعاع الدولة آنذاك أنهم قضوا به على طاقة البيت النبوي وأطفأوا نور الرسالة، ليجعل منه منطلقاً لتهديم تلك الدولة وزعزعة كيانها، ولينقله من حدث وقع في

أطراف الكوفة إلى حدث يهز العالم الإسلامي كله وحسبنا أن نحكم بنجاح هذا الاستهداف الكبير إذا علمنا أن الأئمة وراءه.

ولرب سائل يسأل عن الحكمة التي قضت بأن يكون الإمام السجاد وسط حومة تلك الواقعة المؤلمة والأحداث الدامية ولماذا صحب أباه...؟! ولماذا استصحبه أبوه..؟! أما كان الأجدر - والإمام هو البقية الباقية ووارث هذا المنصب القيادي - أن يكون على أقل التقادير بعيداً عن أخطار القتل، وأن يتجنب الأحداث الدامية، تلك التي كادت تفقده حياته لولا مرضه الذي حال بينه وبين أن يكون في أعداد ضحايا كربلاء...؟

أو لم يكن من مهمة الإمام الحسين أن يحافظ على ولده، والإمام بعده، وهو الذي لم يكن غافلاً عما سوف يلاقيه...؟ ولم أودع الحسين عليه السلام أسرار الإمامة ومقاليد الأمر عند أم سلمة خوفاً عليها وأمرها بأن تسلمها إلى ولده علي ولم يحافظ على ولده بتركه في الحجاز بعيداً عن متناول السيوف...؟.

والجواب على تلك التساؤلات وغيرها وباختصار، هو أن ترك الإمام السجاد في مكة أو المدينة كان أمراً غير مقدور أولاً، وأن اصطحابه عمل ضروري ومهم ثانياً.

أما كونه عملاً ضرورياً ومهماً فلأن صحبة الإمام السجاد عليه السلام لأبيه في تلك الوقائع والمذابح وخروجه منها سالماً يؤكد على قداسة الإمام في قلوب أتباعه، ويكون له الأثر الكبير في توجه الناس إليه، وتعاطفهم معه، بل واعتراف الشيعة بإمامته، أما لو كان من المتخلفين عن الالتحاق بأبيه لتعرض وجوده الديني لدى الناس إلى خسارة كبيرة ولعانى صعوبة بالغة في إقناع الناس به وتعاطفهم معه، بل وشد شيعة أبيه إليه خصوصاً وسط تلك الظروف الصعبة والجهل والتصور في فهم الإمامة وأشخاصها.

إضافة إلى أن مشاهدة الإمام لما وقع على أبيه، واستصحابه له يعتبر مشاركة منه بكل أحداث كربلاء ويمنحه رصيداً كبيراً في الأمة ينطلق منه في نقل ما حدث في عظيم الأمر وشديد الخطب. وبذلك يقدر ان يحفظ لقضية الحسين عليه السلام حيويتها وفعاليتها بإثارة العواطف وشد القلوب إلى تلك المذبحة التي فعلها الأمويون بأبيه وأسرته وأصحابه، ومن جهة أخرى فإن استصحاب الإمام لأبيه له أثر كبير في شخص الإمام نفسه، لأن المحن الكبار تصنع الرجال الكبار فكانت كربلاء عملية بناء لشخصية الإمام الفذة مع ما هو عليه من الكمال والعصمة. فهي ابتلاء من الله ليصنع الإمام ويصطنعه لنفسه عز وجل.

دور الإمام في قضية الحسين

ملحمة كربلاء قضية ذات ثلاثة فصول، فصل قام به الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة قبل الحسين عليه السلام من تمهيدات وتنبؤات عما سيقع للحسين عليه السلام وعن أرض كربلاء والجريمة البشعة التي ستقع فيها، فكان النبي صلى الله عليه وآله ببكائه على الحسين عليه السلام وما كان يظهره من حب وحنان له، إنما يركز في الأمة عدالة قضيته ويدعم موقفه ونزاهته[٨١]، ثم جاء الإمام علي عليه السلام وأكمل ما عليه من واجبات تجاه قضية كربلاء وإخباره عما سوف يقع فيها[٨٢]. ولم تنته حياة الإمام الحسن عليه السلام إلا بعد أن أدى دوره في هذا الشأن أيضاً.

---

٨١ . مثال ذلك: ((وسألت أم سلمة النبي (صلى الله عليه وآله)عن سبب بكائه فقال جاءني جبرائيل فعزاني بابني الحسين وأخبرني أن طائفة من أمتي تقتله لا أنالهم الله شفاعتي).

وفي حديث آخر عن النبي (صلى الله عليه وآله) ((أسري بي في هذا الوقت إلى موضع في العراق يقال له كربلاء فرأيت فيه مصرح الحسين ابني مع جماعة من ولدي وأهل بيتي...)).

٨٢ . راجع كشف الغمة في مصرع الحسين وقتله ص ٢٩.

وأما الفصل الثاني فهو الذي قام الإمام الحسين عليه السلام بأدائه وكانت به المذبحة التي شهدتها كربلاء.

والفصل الثالث هو ما قام به الأئمة عليهم السلام بعد الحسين عليه السلام ويتركز في جعل ملحمة كربلاء معركة بطولية لا يمكن أن تنسى أو تمحى والمحافظة على إظهارها بصورتها الحقيقية المؤلمة، وتكون بذلك قصة تبكي كل من يسمع بها وحدثاً مؤلماً يشيع في النفوس الآلام والحزم إضافة إلى كونها تجربة كبيرة يستلهم منها العبر وتتواكب على منهجها التضحيات[٨٣].

فتكون مجالاً تربوياً مهماً يتغذى بها الفرد المحب لأهل البيت في إيمانه وإقدامه، وتتألف حولها الدروس فتكون عطاءً مستمراً للوجود الشيعي المتصاعد (فإظهار ظلامة الحسين) كانت مهمة الأئمة الذين جاءوا بعده وتحويل قضية الحسين عليه السلام من حدث صغير قام به قلة إلى أطروحة تنفع المسلمين عموماً والشيعة خصوصاً وتكون منارا يهتدي به الآخرون ويقتفون آثاره.

فالبكاء الذي كان يذريه الأئمة عليهم السلام ليس بكاء من مصيبة أصابتهم فحسب بل ليحيوا به النفوس، وينموا به العواطف، ويحافظوا بواسطته على جذور الإيمان والثورة.

وبما أن حديثنا يتركز حول الإمام زين العابدين عليه السلام ومواقفه ونشاطه المرتبط بقضية الحسين عليه السلام فلا بد من أن نعرف كيف كان يذكر الناس بالحسين عليه السلام ويثيرهم وقت كانت الدولة الأموية تعتبر كل ذكر للحسين عليه السلام أو أية إشارة إليه عدواناً ضدها لا يمكن السكوت عليه، وكانت العهود الثلاثة ـ السابق ذكرها ـ التي عاشها الإمام أياماً عصيبة لا

---

٨٣ ـ جاء في كتاب صلح الحسن للشيخ راضي آل ياسين ((وكانت شهادة الطف حسنية أولاً وحسينية ثانياً لأن الحسن أنضج نتائجها ومهد أسبابها ... وكانا عليهما السلام كانما متفقان على تصميم الخطة، أن يكون للحسن منها دور الصابر الحكيم، وللحسين دور الثائر الكريم لتتألف من الدورين قصة واحدة ذات غرض واحد)).

تسمح له بعرض قضية أبيه الحسين وإفهام الأمة أسبابها وخلفياتها، فسلك الإمام طريق (إظهار ظلامة الحسين) ليحافظ على هذه القضية الكبيرة، وواصل الإمام عمله رغم كل تلك الاضطرابات السياسية والتغيرات الحرجة من أجل أن تبقى قضية كربلاء حية في ذهن الأمة. وكان عمله عليه السلام يتركز على جوانب ثلاثة:

الجانب الأول:

إبقاء ذكر الحسين عليه السلام والإشادة باسمه وذلك بالاحتفاظ بأي شيء يشير إليه، وبعث كل ما يؤدي أو يرمز للحسين عليه السلام.

فعن الإمام الرضا عليه السلام (كان علي بن الحسي يتختم بخاتم أبيه)[٨٤]، فإن التختم بخاتم الحسين عليه السلام يعني الإصرار على المحافظة على ذكره وإبقاء رمز وجوده. ومن تلك الأساليب أيضاً رفع الشعار التالي من قبل الإمام (خزي وشقي قاتل الحسين بن علي)، كما يروى أن ذلك كان نقش خاتمه، ومن خلال التمعن في مضمون هذا الشعار ندرك روعة العمل. فإن عدم ذكر اسم محدد فيه يجعله أكثر فاعلية وأقوى تأثيراً، فقد يكون المقصود الحكم الأموي وخليفته يزيد) وقد يكون (عبيد الله بن زياد) أمير الكوفة آنذاك، وقد يكون (عمر بن سعد) قائد الجيش الذي حارب الحسين عليه السلام أو يكون المقصود به من باشر بقتل الحسين أو الذي نكص عن نصرته بعد أن كتب له أن أقبل علينا. كما يمكن أن يكون المقصود هذا المجموع كله.

وهكذا كان هذا الشعار لا يشير إلى جهة خاصة وإنما كان يطرح المفهوم، ويعلن أن تلك الأيدي التي قتلت الحسين عليه السلام أيد مبتورة وأن أصحابها لن يربحوا أبداً بل حل بهم الخزي والشقاء، ولما كان الشعار غير موجه إلى أحد بشخصه كان طبيعياً أن لا يعارضه أحد في وقته حتى شاع وانتشر وأخذ دوره في التأثير، وسعى الإمام أيضاً أن يحافظ على قضية الحسين عليه السلام

---

٨٤ ـ البحار جزء ٤٦ باب ١٤ ـ ٤٦.

تاريخياً وأن يعمق من آثارها ويركز من محتواها في الأجيال المتعاقبة، فعمد إلى شيء من تربة كربلاء وجعل السجود عليها فقد نقل عنه (كان له خريطة ديباج صفراء فيها تربة أبي عبد الله عليه السلام فكان إذا حضرت الصلاة سجد عليها)[85].

ثم أعقبه الأئمة الأطهار في تكميل هذا الأمر فعملوا على إبقاء هذه السنة وتوسيعها والتشجيع على الالتزام بها. وأخذت الشيعة تقتدي بأئمتها حتى شاع السجود على التربية الحسينية وانتشر انتشاراً جعله من الأمور المتسالم عليها، وأصبح شعاراً وعلامة على إيمان الشخص بأهل البيت عليهم السلام.

وببركة هذه الجهود التي بذلها الأئمة أصبح ذكر الحسين عليه السلام واستشهاده جزءاً من قضية الصلاة وهي أهم عبادة في الإسلام. ولم يكن حينئذ من المقدور أن يعفو عليها الزمن أو ينساها الشيعي مطلقاً.

الجانب الثاني:

إظهار الظلامة الكبيرة التي حلت بالحسين عليه السلام، وخير وسيلة يمكن للإمام أن ينظر بها هذه الظلامة هو بكاؤه وشدة حزنه على أبيه. وهي وسيلة مشروعة لا تثير السلطة وأجهزتها ضده لأنهم لا يرون فيها غير العاطفة والارتباط الرحمي بين ولد فقد والده واعز أسرته، وكانوا في غفلة عما يؤسسه الإمام بهذا العمل الهادئ الذي ظاهره البكاء، وواقعه أكبر من ذلك بكثير، لأنه كان الحلقة الثانية لنهضة الحسين والجزء المكمل لها. إن بكاء الإمام بتلك الطريقة ما هو إلا تجسيد لصورة حية لما حدث في كربلاء أمام جمهور الأمة، فهو إعلان للآخرين وإشعار لهم لما فعله الأمويون بأبيه الذي شاد بفضله القريب والبعيد لقرابته من رسول الله ولسيرته بين الناس، واذا كان الإمام لا يقدر أن يحدث كل شخص عما حدث وعما جرى، وعن الأهداف والأسباب التي أدت إلى استشهاد أبيه، فليبك أمام الآخرين وليندب أباه وليشتد حزنه عليه.

---

٨٥ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٧٥.

حتى يتساءل كل واحد عن قضيته وعن سبب حزنه وعن قصة الحسين عليه السلام وماذا أراد بخروجه إلى العراق.

ولكي يكون بكاؤه ملفتاً للنظر مؤثراً في النفوس دافعاً للتساؤل فلابد من أن يكون فريداً في نوعه متميزاً في شكله، فطال به البكاء واشتد به الحزن حتى عد من البكائين الخمسة المعروفين[٨٦] لأنه بقي دهره باكياً، فما وضع طعام بين يديه إلا بكى، وما شرب ماء إلا وبكى وبقي هكذا أكثر من عشرين سنة[٨٧].

ومما يؤكد لنا أن بكاءه لم يكن عاطفياً فحسب وإنما كان ذا مضامين وأهداف بعيدة وعميقة وأنه كان يعلنه ولا يتكتم فيه حتى عرف به واشتهر بين قومه وفي التاريخ، وانعكست هذه الحالة المشجية عنه وكأنه أوقف حياته من أجلها وارتبط كل سلوكه بها، حتى إن عبد الملك حينما رأى إعراض الإمام عنه وعدم الالتفات إليه أثناء الطواف اعتقد أن هذا الإعراض يرتبط بقضية قتل أبيه وقال له بعد أن ردوه إليه (يا علي بن الحسين إني لست قاتل أبيك فما يمنعك من المصير إلي) فأجابه الإمام (إن قاتل أبي أفسد بما فعله دنياه عليه وأفسد أبي بذلك آخرته فإن أحببت أن تكون كهو فكن)[٨٨].

فهذه المحاورة تدلنا على رسوخ هذه الحالة في ذهن الناس حتى تصور الخليفة إن تجنب الإمام له وعدم اهتمامه به كان بسبب ظلامة أبيه واستشهاده.

وكان من أهداف الإمام في البكاء والحزنه الطويل والمستمر هو شد القلوب إليه وكسب الناس، لأن الطريق العاطفي أسرع استجابة وأوسع تأثيراً من الخطب والمواعظ الكلامية، فكانت حالة الإمام المبكية المستمرة وسيلة ناجحة من وسائل كسب الناس وربطهم بخط أهل البيت عليهم السلام.

---

٨٦ ـ البكائون الخمسة هم: آدم ويعقوب ويوسف والزهراء وزين العابدين. عليهم السلام.

٨٧ ـ البحار حزء ٤٦ باب ٦ ـ ١.

٨٨ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٨ ـ ١١.

والإمـام لم يكـتـف بـأن يـبكي وأن يحـزن دون توضـيـح لسـبـب ذلـك الـبكاء والحـزن، بل كـان ينبه ويبين سببه بمـا يجعل حوله مـن السـامعين والمشاهدين لحالـه أنصـاراً له ومشـاركين له في حـزنه. ومعنـى هـذا أن الإمـام لم يكتف بـأن يبكي بل كـان يطالب الأمة بأن تبكي معه، وهو بمحاولاته المتكررة يريد أن يسن سنة يتبعها الآخرون في حياتهم وهو البكاء والحزن على أبيه.

وباستعراضنـا الـروايات الـواردة في بكائـه وحـزنه يمكنـنا أن نتحسـس حجم هذه الظاهرة في حياته الشريفة وآثارها في المجتمع الذي يعيشه.

فعـن الصـادق عليه السـلام أنه قال: أن زين العابدين بكى على أبيه أربعين سنة صائماً قائماً ليله، فإذا حضر الإفطار، جاء غلامه بطعامه وشرابه فيضعه بين يديه فيقـول كل يـا مـولاي فيقـول قـتل ابـن رسـول الله جائعاً قتل ابن رسول الله عطشاناً حتى يبل بالدموع ويكرر ذلك مراراً.

فهـذا الإصـرار في ذكـر الحسـين عليه السـلام ومصيبته عند كل أكل وشرب ثم الإشـارة إلى قـربه مـن رسـول الله صلى الله عليه وآله لا يبقي لدينا أي شك في أنه كان له هدف بعيد ومضمون سام.

وتوضـح لـنـا بعض الـروايات كيـف كـان الإمـام يعتمد في إعـلان بكائـه أمـام الآخـرين وأنـه كـان يـبكي أمـام القصـابين إذا قدمـوا المـاء إلـى ذبيحـتهم قـبل ذبحهـا، ويقـول إن أبـاه ذبـح عطشـاناً ومنـع عنه الماء وإذا لم يكن من الممكن أن يكون القصـاب مسلماً مـن خـلال هـذا الأسـلوب محـباً ومواليـاً. فـلا أقـل من أن يشارك الإمام في بكائه وحزنه وتفاعل مع الأحداث المفجعة.

ويـزيد الإمـام ـ في بعض الأحيـان ـ مـن وقـع المأساة، ويوضـح مقدار التعسف والظلم الـذي حل بالحسين عليه السلام وعائلته إذ يعقد بعض المقارنات كما في قوله مجيباً إلى بعض مـن يواسيه ويخفـف عـنه مصيبته (ويحك أن يعقوب بن اسحاق بن إبـراهيم كـان نـبيا وابـن نـبي، لـه اثـنـا عشـر ولـداً فغيـب الله واحـداً منهم فشـاب رأسـه مـن الحـزن واحـدودب ظهـره مـن الغـم، وذهـب بصـره مـن

البكاء، وابنه حي في دار الدنيا وأنا رأيت أبي وأخي وسبعة عشر من أهل بيتي صرعى مقتولين فكيف ينقضي وقل بكائي)[٨٩].

ومقارنة أخرى يعقدها الإمام بين إطلاق الماء للسباع والوحوش والكلاب ومنعه عن الحسين بن رسول الله صلى الله عليه وآله.

ومما يؤكد لنا أن بكاءه كان عملاً هادفاً وليس مجرد عاطفة جياشة لفقدان أحبته أو لرزيةٍ نزلت به من خلال ما كان يفعله الإمام من ربط كل بكائه حتى العبادي منه - الذي يكون من حين يخلو مع ربه - بقضية الحسين، مثال ذلك أنه جاء في حديث لأحد مواليه (أنه عليه السلام برز يوماً إلى الصحراء، قال: فتبعته فوجدته قد سجد على حجارة خشنة فوقفت وأنا أسمع شهيقه وأحصيت عليه ألف مرة وهو يقول: «لا إله إلا الله حقاً حقاً لا إله إلا الله تعبداً ورقاً، لا إله إلا الله إيماناً وصدقاً».

ثم رفع رأسه وإذا لحيته ووجهه قد غمر بالماء من دموع عينيه فقلت: سيدي أما آن لحزنك أن ينقضي ولبكائك أن يقل؟ فقال لي ويحك إن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كان نبياً وابن نبي له اثني عشر ابناً ...).

فهذه الالتفاتة الرائعة من قبل الإمام بتحويل الإجابة وتفسير البكاء والحزن بأنه لفقد أبيه بهذه الصورة البشعة مع أنه كان يمكن أن يكون الجواب شيئاً آخر، يبرهن لنا كغيره من الروايات عن استهداف هذه الظاهرة. ومن خلال هذا الاستعراض نفهم أن البكاء والحزن كان رسالة الإمام للأمة وأسلوباً من أساليب التأثير في الناس، ولم يكن من أجل مصيبة أبيه وتأثيرها في نفسه فقط. ونحن لا نقصد بقولنا أن ظاهرة البكاء كانت أسلوباً من أساليب العمل والتأثير. إن بكاء الإمام وحزنه على أبيه لم يكن له صدى داخلي وحقيقة موضوعية في نفس الإمام بل على العكس من ذلك فما كانت تراه الأمة من هذه الظاهرة في حياته الشريفة لا خداع فيها، ولا دجل بل هو حزن حقيقي وبكاء

---

٨٩ - مقتل الحسين للسيد محسن العاملي ص ٢١٥.

واقعي عميق في النفس، لأن الإمام كان يفرح كما يفرح الناس ويحزن كما يحزنون، وهو عليه السلام يحزن ويبكي وتأخذ المصيبة منه مأخذاً كبيراً، وخصوصاً إذا كان ذلك الحزن ذا معنى سام وموقفاً إسلامياً وقضية تاريخية، وأما لو كان الحزن والبكاء لا يتناسب وإمامته ويتنافى وما هو عليه من عظيم المنزلة والقدوة الصالحة في الصبر وكظم الغيض والاحتساب عند الله لما وجدناه يحزن أو يبكي مطلقا.

وبتعبير آخر إن استحضار الإمام عليه السلام الهدف في التأثير كان يدفعه حقاً للبكاء والحزن، وكان ذكر كربلاء القائم في معظمه على ضرورة تذكير الناس بها ومواصلة الإعلام عمّا حدث فيها هو نفسه مثيراً للإمام ومفجراً لوجدانه وانفعالاته، فبكاء الإمام كان بكاءً حقيقياً لا تباكياً.

الجانب الثالث:

وكانت المهمة الثالثة من مهام الإمام التي تتعلق باستشهاد أبيه هي إعطاء المفاهيم الصحيحة عن نهضته وسببها وما أعقبها من أحداث، ووضع المقاييس الإسلامية الثابتة من خلال هذه التجربة المباركة لئلا يستغلها بعض المنتفعين، وخوفاً من أن ينحرف فهم البعض في الاستفادة منها، واستلهام الدروس من هذه الواقعة المؤلمة.

والإمام زين العابدين عليه السلام كان يواجه أمرين في هذا الشأن ينبغي الالتفات لهما وتوضيحهما حتى يمكننا أن نفهم بعض مواقفه الرسالية وأن ندرك أهمية المفاهيم والخطب والأحاديث التي كان يطرحها آنذاك.

الأمر الأول:

كانت هناك طائفة من الناس تجهل الدواعي والأسباب التي أدت إلى استشهاد الحسين عليه السلام وتفهم من ذلك أنه خرج ينازع السلطان ويشق عصا الطاعة ويفرق الجماعة، ولا يبايع خليفة المسلمين وأنه يطلب الأمر والحكم لنفسه، وكان الحزب الأموي والموالون له والمنتفعون من حكمه يشيعون

هذا المعنى وكذلك المعادون والحاسدون للبيت الهاشمي، نجد ذلك المعنى فيما جابهه قائد المجموعة التي أنيطت بها مهمة إرجاع الحسين وأهله إلى المدينة حيث قال للحسين: (يا حسين إلا تتقي الله تخرج من الجماعة وتفرق بين هذه الأمة)[٩٠]

وكذلك قول أمير مكة عمر بن سعيد وهو يخطب بعد أن قتل الحسين (أنها لدمة بلدمة وصدمة بصدمة كم خطبة بعد خطبة وموعظة بعد موعظة حكمة بالغة فما تغني النذر والله لوددت أن رأسه في بدنه وروحه في جسده أحياناً كان يسبنا ونمدحه ويقطعنا ونصله كعادتنا وعادته ولم يكن من أرمه ما كان ولكن كيف نصنع بمن سل سيفه يريد قتلنا إلا أن ندفعه عن أنفسنا). فقام عبد الله بن السائب فقال: لو كانت فاطمة حية فرأت رأس الحسين عليه السلام لبكت عليه. فجبهه عمرو بن سعيد وقال: نحن ـ الأمويين ـ أحق بفاطمة أبوها عمنا وزوجها أخونا وابنها ابننا. لو كانت فاطمة حية ما لامت من قتله[٩١].

وكذلك تلك النداءات التي كانت ترتفع بالكوفة (الزموا طاعتكم ولا ترتابوا في قتل من مرق من الدين وخالف الإمام)[٩٢].

وعلى أثر هذه الدعاية الأموية الواسعة لم يكن من الغريب أن ينادي ذلك الشيخ الكبير بوجه السبايا عند دخولهم الشام (الحمد لله الذي أهلككم وقتلكم وأراح البلاد من رجالكم وأمكن منكم أمير المؤمنين).

وكان بعض المسلمين يتصور نهضة الحسين عليه السلام على أنها صراع بين عائلتين ونابعة عن رغبات شخصية وثارات وأحقاد قديمة لا من شيء آخر غيرها. وكان أهل المدينة وأبناء المهاجرين والأنصار يميلون إلى هذا المعنى باعتبارهم لم يدخلوا بعد تجربة الحكم الأموي وتعسفه بهم، ويكشف لنا شعور

---

٩٠ ـ راجع تاريخ الطبري قول يحي بن سعيد الذي أرسله أمير مكة لإرجاع الحسين.
٩١ ـ مقتل الحسين للسيد محسن الأمين ص ١٩٠.
٩٢ ـ تاريخ الطبري ص ٤٦٦.

أهل المدينة ما قاله بعض الموالي إلى عبد الله بن جعفر والناس يعزونه بقتل الحسين (هذا ما لقينا ودخل علينا من الحسين)[٩٣] فكانت هذه النظرة الجاهلة هي الأمر الأول الذي كان يواجهه الإمام زين العابدين عليه السلام.

الأمر الثاني:

كان هناك اعتقاد وخاصة بعد استشهاد الحسين عليه السلام بأن المكانة الشعبية والمنزلة الاجتماعية والزعامة الموروثة التي كان يحظى بها الحسين قبل خروجه من مكة. والتأييد الجماهيري الواسع الذي كان يطالبه بالرحيل إليه واستلام الأمر هو المحرك الأول والأخير في تحرك الحسين عليه السلام والقيام بنهضته، ثم أن هذا القائد المقتول لم يكن على بصيرة من أمره ولم يسمع نصائح الكثيرين من خواصه، فلم يدرك واقع هؤلاء ولا النتائج الوخيمة التي ستؤول لها نهضته باستجابته لهم. فكان مصيره الفشل الخسران. وكان هذا الاعتقاد الخاطئ يسمح لأن يفسر ذلك الحزن والبكاء الطويل من عائلة الإمام ومن نساء الحسين عليه السلام، وبالخصوص من الإمام زين العابدين عليه السلام على أنه جزع من مصيبة نزلت بهم، ولعل هذه النظرة الساذجة كانت تدفع بالبعض من المحبين لأن يواسوا الإمام ويخففوا عنه ثقل مصيبته ويردهم هو بما يزيدهم بصيرة وحزناً.

فكان هذان الأمران يمثلان النظرة الجاهلية إلى هذه الأسرة الشريفة، والمبدأ الذي تريد القوى المعادية لأهل البيت عليهم السلام أن تجعله سائداً متبنى من قبل الجماهير حول قضية كربلاء.

وانتقلت مهام الإمامة إلى زين العابدين عليه السلام وأنيطت به مسؤولية تكميل ذلك البناء الشامخ الذي شيده الحسين عليه السلام بتضحياته الجسيمة.

---

٩٣ ـ تاريخ الطبري ص ٤٣٥ دار الفكر الثانية.

وكان طبيعياً أن تترابط مواقف الإمام مع مواقف أبيه الحسين عليه السلام في المحافظة على الوجهة السليمة في النهضة، ولذلك لم يرفع الحسين عليه السلام صوته مطالباً بالخلافة ولا مطالباً بحقه من بنود صلح الحسن عليه السلام وأنه هو الخليفة بعد معاوية لا يزيد، ولم يشر إلى حقه بالأمر سواء كان في المدينة أو مكة أو كربلاء وإنما بين فسق يزيد واقترافه للحرام وتاريخه السيّئ، وأن مثلي لا يبايع مثله، وأعلن يوم خرج أنه خارج لطلب الإصلاح في أمة جده لا من أجل حكم وسلطان وحطام. وكان الحسين عليه السلام يحرص أن تكون قضيته قضية المسلمين جميعاً، وقضية الظلم والفساد الذي يجب أن يرفع عن هذه الرعية. واستصحب عليه السلام معه النساء والعيال لكي تتكشف النوايا الأموية الخبيثة، والبشاعة اللاإنسانية التي تحملها السلطة المنحرفة وكان الحسين عليه السلام يعرف نفسه بأنه ابن رسول الله وأنه سيد شباب أهل الجنة وأن أباه علي بن أبي طالب وعمه حمزة وأمه فاطمة كي لا يشك البعض في صدق نواياه وأنه يقوم بواجبه الرسالي الذي يحتم عليه الخروج والنهضة، وليس عملاً شخصياً وتحركاً من أجل الذات أو السلطان.

وكانت مجموعة هذه الأعمال وسائل استخدمها الإمام الحسين عليه السلام في إبراز طهارة قضيته تجاه الأفكار الخاطئة التي كان بعضهم يتصورها عن نهضته، ثم أعقب عمل الحسين عليه السلام مهمة الإمام السجاد عليه السلام في التصدي إلى حملات التشهير أو التشويه ضد أهل البيت عليهم السلام وقضية كربلاء فقد قام الإمام بواجبه في علاج بعض التصورات الخاطئة واستخدم في ذلك وسيلتين:

النوع الأول:

استخدام الوسيلة الإعلامية من الخطب والأحاديث والأسئلة والأجوبة والأدعية المباركة التي كانت تتضمن الأفكار الأساسية والمبادئ المهمة لنهج الحسين عليه السلام ولخط الإمامة في الأمة، وأن الحسين عليه السلام ما كان

ليخرج إلا قياماً بواجبه في الدفاع عن الدين، وطلباً للحق وأن مذبحه كربلاء ما كانت لتقع لولا التزام الحسين عليه السلام بهدى جده في حماية هذا الدين والذود عن أبناء الأمة من تعسف الظلمة والطغاة، ولكي يضع حداً لهذه الانتهاكات الصارخة لمقدسات الدين وحرماته.

النوع الثاني:

استخدام الممارسات الفعلية من السلوك اليومي والمواقف العملية والتعامل الاجتماعي والأخلاقي، التي تبرهن للأمة مكانة وقدسية أهل البيت وتعكس لهم الصورة الناصعة عن متبنياتهم، وشدة التزامهم بالدين ورعايتهم لشؤون المسلمين.

وكان النوع الأول يتضمن نشر جملة من المبادئ وتركيزها، وكان الإمام يحاول أن يؤكد على تلك الأفكار في خطبه وكلماته أمام الآخرين لكي تكون أساساً نظرياً في فهم النهضة الحسينية وعلاجاً للتصورات المنحرفة فيها وليمتنع بذلك من محاولات التشويه أو استغلال القضية، ومن هذه الأفكار:

١. كان الإمام يؤكد على منزلة الحسين عليه السلام العظيمة عند الله وأنه سيد شباب أهل الجنة وأنهم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وأنهم عظماء في السماء قبل أن يكونوا عظماء في الأرض، وأن محبتهم واجبة وبغضهم ممحق للإيمان، هذه الأمور وأمثالها التي تعتبر وسائل لنشر التشيع وتعميق مفهوم الإمامة كانت كاشفة ومبينة عن أحقية الحسين عليه السلام وعن بطلان أعدائهم وأنهم طواغيت الأرض وفراعنتها.

وكان الإمام يؤكد أيضاً وفي مرات متعددة أن ما حدث في كربلاء ليس أمراً هيناً وإنما هو حدث جلل وقضية كبيرة جداً اهتزت لها السماوات وما فيها، وأن صدى ما وقع على الحسين عليه السلام كان عظيماً وكبيراً في السماء، وان لم يكن كذلك عند الناس. ومن ذلك ما قاله في مجلس يزيد وهو يعرف نفسه بعد أن عدد فضائل الله على أهل البيت قال: (أنا ابن ذبيح كربلاء أنا ابن من بكى

عليه الجن في الظلمات وناحت عليه الطير في الهواء)، وذكر هذا المعنى في المدينة حينما رجع مع السبايا وخطب خطبته المؤثرة والتي منها: (فلقد بكت السبع الشداد لقتله وبكت البحار بأمواجها والسماوات بأركانها والأرض بأرجائها والأشجار بأغصانها والحيتان في لجج البحار والملائكة المقربون وأهل السموات أجمعون).

ونصوص أخرى كثيرة متفرقة كلها بهذا المضمون، وكذلك ما جاء في تعظيم أرض كربلاء لأنها ضمت جسد الحسين عليه السلام وسال عليه دمه، كل تلك المعاني كان الإمام يحاول من خلال ترسيخها أن تدرك الأمة والأجيال أن مسالة كربلاء ليست قصة مطالبة بسلطان أو مخاصمة في ملك وإلا ما شأن هذا الصدى الكبير لهذه الواقعة؟ ولم هذا الأثر في السماء وفي الأرض؟!

وكانت هذه المعاني ضرورية في تقويم تلك التصورات الخاطئة التي كان الحكام وأبناء الدولة والحزب الأموي يحاولون إشاعتها عن حركة الحسين عليه السلام وعن أهل البيت عليهم السلام.

٢. كان الإمام يؤكد على الزاوية الإسلامية في فهم ما وقع على الحسين عليه السلام واستعمال المقاييس الحقة في فهم الأحداث، وخصوصاً في تمييز من هو المنتصر ومن هو الخاسر في كربلاء، محاولة بذلك تثبيت الأسس والمبادئ الإسلامية في فهم قضية الحسين عليه السلام وكيفية التعامل معها واستلهام الدروس من هذه التجربة الكبيرة التي قدمها الأئمة للأمة.

فكان من جملة ما ركز عليه الإمام هو انتصار الحسين عليه السلام وخسران أعدائه وأنه أحل بهم العار والخزي، ويكون هذا المعنى مهماً لأن أكثر الذين خرجوا لقتاله بل وحتى الذين قادوا الجيوش إنما كانوا منهم، ذلك لطمع وحب لدنيا رخيصة.

ومما جاء في تأكيد هذا المعنى قوله حينما دخل الكوفة واجتمع الناس على السبايا: (أنا ابن من قتل صبراً وكفى بذلك فخراً)[٩٤].

وكان يعني بذلك أنه ابن أعظم شهيد في دنيا الإسلام، ورد بعنف على أولئك الذين كانوا يتصورون أنهم شجعان بقتلهم للحسين عليه السلام ويدعون أنهم قتلوا خارجاً كذاباً يشق عصا الطاعة ويفرق الجماعة، وكان الشعار الذي يردده (خزي وشقي قاتل الحسين) كلمة أخرى للأمة لتفهم أن قاتل الحسين عليه السلام لم يربح ولم ينتصر أبداً بل قد شقي وخزي. وبنفس هذا المعنى خاطب يزيد قائلاً له: (لو تعلم يزيد ما صنعت وما الذي ارتكبت في أبي وأهل بيتي وأخوتي وعمومتي؟ إذاً لهربت في الجبال وافترشت الرماد ودعوت بالويل والثبور، أن يكون رأس الحسين بن فاطمة وعلي منصوباً على باب مدينتكم وهو وديعة رسول الله فيكم، فابشر بالخزي والندامة إذا اجتمع الناس ليوم القيامة)[٩٥].

وكذلك أجاب عبد الملك بما يؤكد ذلك المعنى ويرسخه (إن قاتل أبي أفسد بما فعله دنياه عليه، وأفسد أبي عليه بذلك آخرته، فإن أحببت أن تكون كهو فكن)[٩٦].

فكانت هذه الكلمات وغيرها مفاهيم للأمة عن معاني الفوز والانتصار والمعيار الذي يجب أن تتعامل به لتميز من هو الخاسر ومن هو الفائز المنتصر، وأن كل من اختار طمع الدنيا الزائل البسيط واستبدله بعذاب الآخرة الشديد، فهو الخاسر الخازي، وأن المنتصر هو الذي لا يطيع الطغاة ولا ينحرف عن الحق، ولا يستسلم للباطل أبداً،بل تصدى ودافع عن دينه وحرماته.

---

٩٤ ـ مقتل الحسين للسيد محسن العاملي ص ١٨١.

٩٥ ـ نفس المصدر ص ١٩٨.

٩٦ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٨ ـ ١١.

٣ـ كان الإمام وفي مرات متكررة يبين أن ما وقع في كربلاء انما هو أمر قد حكم به الله في قضائه ودبره في حكمته وأنهم أهل بيت يرضون بقضاء الله ويشكرونه على ما ابتلاهم. وكان هذا المعنى يقابل به الإمام أولئك الذين يتشمتون بما نزل بهم، أو الذين يتصورون أن بكاءه وحزنه على أبيه جزع منه، وما جاء في هذا المعنى قول الإمام ليزيد في معرض جوابه على تهكمه: ((ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم، إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير، لكيلا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما أتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور))[٩٧].

وأجاب الإمام بهذه الروح من الرضا عبيد الله بن زياد حينما أراد أن يخيفه بالقتل ((أبالقتل تهددني يا ابن زياد أما علمت أن القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة))[٩٨]؟

وكذلك يذكر هذا المعنى في خطبته عند دخوله المدينة مع السبايا بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

(نحمده على عظائم الأمور وفجائع الدهور ... أيها القوم إن الله و له الحمد ابتلانا بمصائب جليلة وثلمة في الإسلامي عظيمة)[٩٩].

وكان هذا الصبر وهذا الرضا مصدره الإيمان العميق بهذا الدين واليقين التام بصحة الطريق وثواب الله، فهذه زينب عليها السلام ترفع يدها عند جسد أخيها قائلة (اللهم تقبل منا هذا القربان اللهم إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى).

وإيمان الإمام وأهل بيته بالقضاء إيمان صحيح لا انحراف فيه، واحتسبوا مصيبتهم عند الله بوعي وإدراك تام، لأنهم بنفس الوقت الذي يضرون بما

---

٩٧ ـ المقتل للسيد محسن العاملي ص ١٩٨.

٩٨ ـ نفس المصدر ص ١٨٥.

٩٩ ـ نفس المصدر ص ٢١٣.

قسمه الله لهم وبما ابتلاهم به يحددون المسؤوليات والأخطار التي سببت هذا الأمر الفادح والمصاب الجلل، إذا كان الإمام يلتفت إلى أهل الكوفة معاتباً لهم على نكثهم العهود التي قطعوها على أنفسهم وخذلهم الحسين عليه السلام وكذلك عاتبتهم زينب عليها السلام عمته وأهل بيته.

وأصر الإمام في مجلس عبيد الله بن زياد وكذلك في مجلس يزيد على أن يحدد المسؤولية ويشير إلى المفهوم الصحيح في قتل الحسين عليه السلام وأن الذي تجاسر عليه وقتله هم الناس وليس الله كما كانت تريد الدعاية الأموية إشاعته، ويذكر المؤرخون أنه حينما عرض الأسارى السبايا على عبيد الله بن زياد. فقال عبيد الله (أليس قد قتل الله علي بن الحسين) فأجاب الإمام قد كان لي اسمه علي قتله الناس. فقال بل الله قتله. فقال الإمام الله يتوفى الأنفس حين موتها، فغضب عبيد الله وأراد أن يقتل الإمام[١٠٠].

ومثل هذا وقع مع الإمام في مجلس يزيد وأكد الإمام أن القاتل هم هؤلاء الشرذمة وليس الله، وإلا لو كان الله هو القاتل فلم هذا البكاء ولم هذا الحزن وعلام هذه الثورات والمطالبة بالثأر والدم؟!

وهذه النقاط الثلاث السالفة هي المفاهيم الرئيسية التي كان الإمام يركزها في ذهن الأمة لإزالة النظرات الجاهلية وتوضيح الحقائق لدى المسلمين عن قضية أبيه.

وكانت الظواهر الأخرى التي برزت في حياة الامام من جوده وكرمه وحمله للطعام إلى الفقراء والمساكين وعطفه على المحرومين ومواقفه الأخلاقية الرائعة والمشاركة الحنونة في هموم الناس، وحاجاتهم ومصائبهم، ثم هذا البكاء والنحيب من الرجل الزاهد الورع الذي قضى حياته عابداً ناسكاً مصلياً متهجداً، كل ذلك في خطبه ومواعظه، ويركز من حبه لدى جمهور المسلمين

١٠٠ ـ المقتل للسيد الأمين ص ٢١٣.

وتتبدد تلك الإشاعات المغرضة والمحاولات للحط من أهل البيت وتشويه ثورتهم في كربلاء.

وكان الإمام يرد بهذه السلوكية وبهذه الظواهر أن يتعرف الناس على مصيبة الحسين عليه السلام ونزاهة قضيته.

وتعرف الناس خصوصاً بعد أن عانوا التجربة الأموية على قصة هذا الإنسان العظيم ابن ذلك البطل المقتول في كربلاء مع عترته وأهل بيته، وعلموا أن قضيته كانت من أجل هذه الأمة ومن أجل صلاحها، فكان الحب وكان العطف والموالاة والتشيع لهذا البيت يكبر ويزداد يوماً بعد يوم بواسطة كربلاء وبطلها المذبوح وبطلها الحي. فكانت كربلاء فخاً وقع به الأمويون، ومناراً وهدىً لأبناء هذه الأمة ليعرفوا الطريق ويستلهموا الدروس، فكانت فتحاً كما أرادها الله ونبه عنا الإمام الحسين عليه السلام.

وما هي إلا سنين حتى تظافرت الجهود وولج الناس من باب ظلامة الحسين عليه السلام إلى الهدى وتعلموا حب أهل البيت والموالاة لهم.

وتعاهد الأئمة تكميل باقي الأطروحة وحثوا الناس على البكاء.

والإمام السجاد كان بعمله هذا يريد أن يبكي الناس والأجيال كلها على مصيبة الحسين عليه السلام لأنها قضية الإسلام على مر الأجيال، فكان من حث الإمام السجاد الناس على البكاء قوله: ((وهذه الرزية التي لا مثلها زرية، أيها الناس فأي رجالات منكم يسرون بعد قتله أم أي فؤاد لا يحزن من أجله أم أي عين منكم تحبس دمعها))[١٠١].

وقال لأصحابه أيضاً: ((أي مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين عليه السلام حتى تسيل على خده بوأه الله بها في الجنة غرفاً يسكنها أحقاباً، وأيما مؤمن

١٠١ ـ المقتل للسيد محسن الأمين ص ٢١٣.

دمعت عيناه على خديه فيما مسنا من الأذى من عدونا في الدنيا بوأه الله منزل صدق)) [١٠٢].

هذا الحث على البكاء ينبهنا إلى الأثر الذي يخلقه هذا الشعور من التحسس والإثارة ضد الظلم، كذلك يؤكد لنا أن بكاء الإمام السجاد عليه السلام كان ذا أهداف بعيدة جداً.

وتعاقب الأئمة بعد الإمام السجاد بالحث على ذكر قضية الحسين عليه السلام كما هو الحال في الإمام الباقر عليه السلام الذي يوحي بصرف ثمانمائة درهم لنوادب يندبن الحسين عليه السلام بمنى عشر سنين أيام الموسم وتجمع الناس. ويحث الإمام الصادق عليه السلام أيضاً على البكاء بقوله (من تباكى فله الجنة). هكذا سار باقي الأئمة في حث شيعتهم على زيارة الحسين عليه السلام وعقد مجالس العزاء لتذكر مصيبته. وأثمرت هذه الجهود التي ابتدأها الإمام في بقاء قضية الحسين عليه السلام حية في نفوس الشيعة وذات صدى كبير عبر هذه القرون الطويلة.

فالسنة التي سنها الإمام السجاد عليه السلام بحزنه الطويل وبكائه الشديد، ثم تعاهد الأئمة من بعده إلى تعميق هذه السنة عند الناس، أدت إلى أن تشيع هذه الظاهرة ومراسيمها بين شيعتهم ومواليهم إلى الآن وبهذا الحجم الكبير الذي كان له أعمق الأثر في إبقاء قضية الحسين عليه السلام حية كاشفة للمنحرفين والمأجورين ومناراً وهدى للمؤمنين.

٢ـ ظاهرة العبادة

لو أردنا أن نتفحص أهم الظواهر التي برزت في حياة الإمام زين العابدين عليه السلام لوجدناها الابتعاد عن الدنيا، وكثرة العبادة من الصوم والصلاة والزهد

---

١٠٢ . عن كامل الزيارات ص ١٠٠ طبعة النجف ١٣٥٦.

في المتاع والملاذ، أي الظاهرة التي سنسميها فيما بعد بظاهرة التعبد والانصراف عن الدنيا.

وبروز هذه الظاهرة، واتصاف الإمام بها أكبر من أن تحتاج إلى دليل أو نص تاريخي يثبتها. يكفينا من ذلك تسميته بزين العابدين وتلقيبه بالسجاد، وما هو معروف عند غير الشيعة من أنه أحد العباد المتصوفين الزهاد الذين ازدهرت بهم الدنيا وأشاد بهم التاريخ[١٠٣].

ولكي نتعرف على صورة حية عن شكل هذه العبادة وكميتها وكيفيتها وما كان يتصل بها من خشية وزهد ومواعظ فلا بد من استعراض طائفة من الروايات التي تحدثنا عن ذلك ومنها:-

سئلت مولاة له عنه عليه السلام فقالت: أطنب أم أختصر؟ فقيل لها بل اختصري فقالت: ما أتيته بطعام نهاراً قط وما فرشت له بليل قط[١٠٤] وكان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة حتى خرج بجبهته وآثار سجوده مثل كركة البعير. ويصف الإمام الباقر عليه السلام كثرة صلاته فيقول: (كان أبي يصلي بالليل حتى يزحف إلى فراشه. وذلك لشدة إعيائه)[١٠٥].

أما الروايات التي تتحدث عن وصف عبادته وكيفيتها فمنها:

أنه إذا قام للصلاة كأنه ساق شجرة لا يتحرك منه شيء إلا ما حركته الريح. بل إذا قام إلى صلاته تغير لونه فإذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقاً وكذا إذا قام إلى وضوئه اصفر لونه تأهباً وخشية من لقاء ربه[١٠٦].

وكان بعض المحبين يروعهم ما يرونه من شدة عبادته وما يصنعه الإمام بنفسه يطلبون منه أن يخفف عن نفسه وأن يحافظ عليها، ومن هؤلاء أخته

---

١٠٣ ـ كتب الشيخ عبد الحليم محمود وهو من علماء الأزهر كتاباً في الإمام زين العابدين الرجل العابد الزاهد لا غير.

١٠٤ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٣٥.

١٠٥ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ١٧.

١٠٦ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥.

فاطمة حيث طلبت من الصحابي الجليل جابر الأنصاري أن يقنع الإمام بأن يكف عن هذا الجهد وأن يقلل من عبادته خوفاً من أن يقضي عليه أو يصاب بعلة وهو وحيد أبيه وبقية الله الصالحة.

وكان البعض لا يتمالك نفسه حينما يرى الإمام وقد أخذت منه العبادة مأخذها إلا أن يبكي على الإمام خوفاً وشفقة عليه مما كانت تؤديه هذه العبادة من ضعف وانحلال في جسمه وإغماء وإعياء حتى أن ابنه الباقر عليه السلام حينما دخل إحدى المرّات على أبيه فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد (وقد اصفر لونه من السهر ورمضت عيناه من البكاء ودبرت جبهته وانخرم أنفه من السجود وقد ورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة فقال أبو جعفر فلم أملك حين رأيته بتلك الحالة البكاء فبكيت رحمة له).

وانك لتجد كل من كتب عن الإمام يستعرض هذه الحالة ويتناول هذه الظاهرة النادرة ونادراً ما نجد تفسيرا واضحاً جلياً لبروز هذه الظاهرة في حياته الشريفة، ولماذا لم تبرز في باقي الأئمة؟ وتجد أن بعضهم يميل إلى تفسيرها بالمنقبة الكاشفة عن منزلتة الإمام العظيمة ويكتفي بتجلية هذه السمة وكأنها دليل على إمامته وعظيم درجته.

إن الاقتصاد على هذا التفسير الفج لهذه الظاهرة ناشئ من فهم قاصر لا يناسب شخصية الإمام، وان عد هذه الظاهرة على أنها مجرد مناقب وفضائل للإمام ليس فهماً شيعياً لواقع الأئمة ولشخصياتهم القيادية.

أما معرفتنا الشيعية وأصول عقائدنا فتمنحنا المجال الواسع في البحث واكتشاف دور كل إمام، والتفتيش عن الأهداف المشتركة لهم ودراسة الوسائل التي اعتمدوها في العمل، ويكفينا في اكتشاف أن عبادة الإمام كانت موقفاً مبدئياً ووسيلة لتحقيق أهداف كبيرة كانت بعاتق الإمام. إننا لم نجد مثل هذه العبادة في شكلها ولا في كميتها، عند باقي الأئمة لا الذين سبقوه ولا الذين لحقوه، فلم يكن الإمام الحسن عليه السلام مثله، ولم يكن حفيده الإمام

الصادق عليه السلام منصرفاً لما انصرف إليه جده، في وقت نعلم أنهم على درجة واحدة من الفضل والشرف وعلو الدرجة.

فما هي الظروف التي أدت بالإمام إلى أن يستخدم هذه الظاهرة...؟ وما هي الأهداف التي كانت تتضمنها هذه الوسيلة من العمل...؟ ولكي يشاركنا القارئ في فهم هذه الظاهرة ومعرفة أبعادها وما تحمله من معان ومضامين فلا بد من دراستها من عدة جهات ونواحي، وأن لا نقتصر على النظر إليها من زاوية واحدة لأنه يسبب قصوراً في إدراك موقعها من عمل الإمام.

١ ـ *دراستها مع ما حولها من الظواهر الأخرى:*

لم تكن ظاهرة التعبد هي الوحيدة في حياة الإمام بل كان بجانبها ظاهرة الإعتاق والبكاء والإنفاق فينبغي عند دراسة الإمام أن نضع هذه الظواهر كلها وننظر إليها بمنظار واحد لنتلمس ضرورة الارتباط وجمال التنسيق بينها، وكذلك كي نلمس جوانب القوة والتأثير في هذه الظواهر لما فيها من الالتحام والتكامل وكيف جعل إمامنا هذه الوسائل المختلفة تتجمع بآصرة واحدة كصفة شخصية له.

وحينما ندرس هذه الظواهر كما قلنا بصورة مشتركة، غير مغربلة إحداهما عن الأخرى باعتبار وحدتها في الإطار وفي الهدف، فإن ذلك لا يعني عدم وجود أهداف جزئية تحققها كل ظاهرة على انفراد وبمجموع هذه الأهداف الجزئية يتكون ويتبلور الهدف العام للإمام.

٢ ـ *دراستها من خلال الظروف المحيطة بالإمام:*

أما الظروف السياسية التي أحاطت بالإمام فهي تختلف عن باقي الأئمة فهو ابن ذلك الثائر ضد الدولة والمقتول من أجل تصحيح انحراف الحكام.

وكانت البلاد في عهده تموج بالاضطراب والفوضى وخصوصاً في الفترة الأولى من إمامته، وكادت الدولة الأموية تباد وتقام الدولة الزبيرية على أنقاضها. ثم لم تكن الفترة الثانية من حياته الشريفة بأحسن منها في الفترة الأولى حيث الكابوس الخانق والظلم الفظيع الذي حمل لواءه عبد الملك ومما خلفه ولاته القساة كالحجاج وخالد القسري وبشير بن مروان.

وكانت التغييرات الاجتماعية التي أعقبت الفتوحات الكبيرة واهتمام السلطة بالمغانم من دون الانتباه إلى مخاطر الانفتاح والاختلاط بالشعوب الكافرة.

وكذلك ظهرت في عهد الإمام الزعامات الفكرية والشخصيات الدينية، التي تعمل للدعوة لنفسها في وقت لم يكن هناك من يتجرأ على ذلك في عهد الحسن والحسين عليهما السلام لزعامتهم الدينية والاجتماعية الكبيرة وبجانب هذه الأمور كانت الوسائل الأموية ضد أهل البيت وبني هاشم وتشويه سمعتهم قد أثمرت وترسخت عند البعض، ثم كانت هناك عمليات التحريف وشراء الذمم واستئجار المحدثين الكذابين وخداع المسلمين بهم.

فكل تلك الأمور تكاثفت وتجمعت في عهد الإمام السجاد عليه السلام فلا بد من الانتباه إليها عند دراسة ظاهرة التعبد وأسبابها وأهدافها ونتائجها.

٣ـ دراستها من خلال دور الإمام، والمرحلة التي كان عليها عمل الأئمة:

فدور الإمام السجاد عليه السلام كان يمثل انعطافا في سير الأئمة في العمل وكان عليه السلام القائد الأول في المرحلة الثانية لعملهم، فمرحلة الأئمة قبله كانت مرحلة الصراع السياسي والمطالبة بالحكم، أما مرحلة الإمام من بعده فهي مرحلة القيادة الفكرية والصراع حول هذه القيادة. وكانت حياة الإمام السجاد بداءة لهذه المرحلة ولهذا فهي تحتاج إلى مظاهر جديدة وسلوكية خاصة. وتعتمد صبغة هذه المظاهر على فهم الشيعة آنذاك، ومقدار

وعيهم وثقافتهم، ونوع الترابط بينهم من حيث كونه مجموعة من الميول العاطفية أو تكتلا مبدئيا. ولا بد أن ندرس الأهداف الإيجابية والمهام الرسالية للإمام من القيمومة على أحكام الإسلام ومتابعة الأمة بما تحتاج إليه منها، وتثقيف المسلمين وتخريج العلماء، وإيجاد الشخصية النموذجية. وكذلك لابد أن نتعرف أيضاً على الرصيد الذي يملكه الإمام بين شيعته وعند المسلمين لكي يتصدر القيادة ويمارس التوجيه فيهم.

في هذه العجالة سنتناول شيئاً من هذه الظاهرة في محاولة للوصول إلى تفسير لها، والدواعي التي حتمت على الإمام اختيار هذا المسلك وانتهاجه في الحياة.

الانزواء وظاهرة التعبد

من المعروف عن الإمام السجاد أنه كان منعزلاً منزوياً عن الحياة العامة منشغلاً بعبادة ربه منصرفا عن مشاغل الدنيا، وجاء في وصف حياته أنه (ضرب له بيتاً من الشعر خارج المدينة يتفرغ فيه للعبادة والابتهال)[١٠٧].

وجاء في الأحاديث أن انزواء الامام وانكماشه عن مسرح الأحداث إنما هو لأمر رباني وجزء من تخطيط غيبي، ونسب إلى الإمام الصادق عليه السلام قوله (إن علي بن الحسين لما انتهى إليه الأمر فتح الخاتم الرابع من الوصية المنزلة على جده فقرأ فيها (يا علي أطرق وأصمت)[١٠٨].

ومن الحق أن نتساءل هنا عن السبب الذي حدا بالإمام إلى أن يختار الانزواء ولماذا أمره الله بأن يطرق ويصمت ولم يشارك بالنشاطات العامة والتحركات القيادية؟ ويمكن أن نشير بصدد الجواب عن هذا التساؤل إلى سببين مهمين اقتضيا من الإمام أن يتخذ هذه الصورة من المعيشة وسط الأمة:

أولاً: الوضع السياسي.

---

١٠٧ ـ الإمام زين العابدين لعبد الرزاق المقرم ص ٤٢.

١٠٨ ـ الإمام زين العابدين لعبد الرزاق المقرم عن الكافي والغيبة للنعماني.

ثانياً: بلورة العمل المرحلي.

ونقصد بالوضع السياسي الحالة السياسية التي عاصرها الإمام حيث كانت الفترة الأولى من حكم يزيد الذي كان حكمه يمثل الاستهتار والعنف، ثم أعقبتها تسع سنين من الاضطراب والفوضى والصراع على السلطة بين الأمويين والزبيريين، وقيام الثورات الشيعية في العراق، وبدأت الفترة الثالثة بعد هيمنة عبد الملك بظلمه ومكره على الدولة، وتسليط ولاته القساة على الأمة.

وكان وضع الإمام باعتباره ابن الحسين الثائر، وأحد زعماء بني هاشم المعروفين بعداوتهم للأمويين ومطالبتهم بالخلافة لأنهم عشيرة النبي، إضافة إلى الثورات الشيعية التي تدعو لأهل البيت، كل تلك الأمور كانت تزيد من حراجة[١٠٩] وضع الإمام وتنذر بأخطار كبيرة تحيط بالإمام.

وأما بلورة العمل المرحلي، فإن الانتقال من مرحلة الصراع مع الدولة الذي كان يمارسه الأئمة الأوائل إلى مهادنتها ومصانعتها، والتفرغ لنشر العلم وتربية الشيعة وتثقيفهم وترسيخ مفاهم الإمامة فيهم، كل ذلك يمثل انعطافاً كبيراً في السير، وكان هذا الانعطاف يحتاج إلى فاصل كبير وعمل عميق يضع حداً لآثار المرحلة الأولى ويهيئ مستلزمات العمل للمرحلة الثانية.

فالإمام يريد بالمرحلة الثانية تغيير ما تعودت عليه الشيعة من تعامل مع أئمتها ويريد منهم استجابة وتعلقاً بهم يصدر عن فهم مبدئي لا عاطفي فحسب، وهو يريد أن تطمئن الدولة منه ويتفرغ لنشاطه العلمي والتربوي.

فكان هذا الانعزال والانزواء هو العمل الأفضل، والحد المميز ما بين المرحلتين ويبدأ بعد أن تنتهي ذيول المرحلة الأولى ونفاياتها بالسير بأسلوب جديد وبوسائل جديدة للعمل، ويمهد بذلك الأمر للأئمة الذين سيعقبونه.

---

١٠٩ . جاء في كتاب رسالة الحقوق لعبد الهادي المختار: ((كان الإمام زين العابدين عليه السلام طيلة تلك الحروب والفتن والقلاقل معتكفا في مسجد جده صلى الله عليه وآله أو في حرم مكة)).

وعلى ضوء ذلك يمكن أن ندعي أن الإمام أخذ يقلص من انعزاله تدريجياً كلما تقدمت به السنين، وأخذ يمارس عمله الاجتماعي ونشاطه الهادف بين صفوف مجتمعه بعد أن حقق الانزواء غاياته وأهدافه، فكان ذلك البيت من الشعر خارج المدينة هو العمل الأول بعد رجوعه من كربلاء وفي الفترة الأولى من توليه الأمر لا أنه بيت أقام به طوال عمره وقضى فيه فترة إمامته، لأن ذلك لا يمكن أن يصدر من إمام نصبه الله هادياً وحجة للناس.

والإمام مع تقلص درجة انعزاله تدريجياً لم يدخل المجتمع بكل أعماقه ولم يشارك فيه بكل أنواع المشاركة وإنما عاش إنساناً زاهداً عابداً منصرفاً عن مشاكل الدنيا واعظاً مهتماً بالفقراء والمساكين وقضاء حوائج الناس، لأنه لا يمكن أن تتباين سلوكيته أو تتمايز ما بين أول فترة من حياته عن باقي عمره.

فكانت هذه الدواعي والظروف التي أحاطت بالإمام هي التي أقصته وأجبرته على الانزواء والابتعاد عن مسرح الأحداث، وكان طبيعياً أن يتفرغ حينئذ لما يحب ويرغب به وهو عبادة ربه ومناجاته والابتهال إليه وكثرة الصلاة والصيام، وكان موقفه هذا يشبه موقف الإمام الكاظم عليه السلام وغيره من الأئمة حينما أودعوا السجن فتفرغوا للعبادة وشكروا ربهم أن هيأ لهم وقتاً لذكره ومناجاته.

زعامة الإمام وظاهرة التعبد

يمكننا أن نقسم الجنبة الروحية التي تظهر عند البعض بانصرافهم إلى العبادة من صوم وصلاة وتنفل وتمجيد إلى صنفين.

الاتجاه الروحي الصحيح وهو الذي أمر به الإسلام وحث عليه، لأنك تلمس في صاحبها نور الإيمان وروح التقوى تعانق الخلق الإسلامي والروح الجهادية، فلا يعيش الانفصام بينهما، فهو إنسان اجتماعي مجاهد وبنفس الوقت زاهد عابد ترتاح عند مجالسته وتميل إلى صحبته لما تجد فيه من ابتسامة الإيمان واليقين والبكاء على ذنوبه وتقصيراته.

وأما الاتجاه الآخر فهو الاتجاه الروحي المنحرف ـ التصوف ـ ويعيشه أولئك الذين أخطأوا في فهم الإسلام ومضامينه وشريعته فتراهم ينشغلون بكثرة الصوم والصلاة والعبادة، ولكنك لا تجد أن عبادتهم هذه أثرت في واقع نفوسهم شيئاً فقلوبهم لا تزال يعلق بها من صدأ العادات الجاهلية ومفاهيمها الشيء الكثير، ولا تحس منهم شفافية الإيمان وطهارة النفوس، يبدوا أنهم قد اقتصروا بفهمهم للإسلام على هذا الجانب فقط، فتركوا الحياة وانشغلوا بالعبادة فكان الانحراف وكان التصوف.

فالنوع الأول هو الذي كان يمتاز به الأئمة بما فيهم إمامنا السجاد عليه السلام فروحيته وعبادته اجتماعية، حيث يأنس به المصاحب ويميل إليه المقابل ويحبه الناس ولا يترك أي أثر سيّئ عندهم.

ونجد أن كل إنسان متدين مسلم حينما يلتقي بالصنف الأول أو يسمع به يحبه ويجله ويميل إليه، باعتباره يمثل نموذجاً إسلامياً رائعاً من قوة اليقين والإيمان الشامخ. بل وحتى الذين هم بعيدون عن الالتزامات الدينية والروحية يحترمون الإنسان العابد الزاهد باعتباره يمثل قوة في الشخصية ونزعة مميزة في هذه الحياة.

فالذات البشرية بما أودع الله فيها من نوازع الخير تحترم وتجل الإنسان المنقطع إلى ربه الزاهد في الحياة الدنيا، وقد تعبر عن هذا الاحترام بالحب والتقرب والارتباط به وقد تكتمه فلا تبوح به، ولكنها تتعامل من خلاله معه.

ويمكن أن نجد هذا في نفوسنا فإن مواقفنا الشخصية سرعان ما تتغير وتتقلب إذا ما صادفنا إنساناً قوياً في إيمانه زاهداً في دنياه منقطعاً إلى عبادة ربه منصرفاً عن تفاهات الحياة. وقد نكذب سمعنا وندافع عنه ولا نصدق بما يقال عنه من افتراءات وإشاعات.

ونجد من أمثلة ذلك أن الإمام الكاظم عليه السلام حين أودع السجن ورأى صاحب السجن عبادته وانقطاعه ومناجاته سرعان ما غير موقفه منه

وكذب سمعه من كل ما قيل فيه وعليه، وحاول بكل جهده أن يبتعد عن مسؤولية سجنه، وكذلك الحال مع إمامنا العسكري عليه السلام فكانت هذه الثمرة من جملة ما يقصده الإمام من إعلان زهده وانكشاف عبادته ومناجاته وابتهاله.

وبنفس هذا الاتجاه كان عمل الإمام السجاد. فإن انصرافه إلى العبادة وبتلك الحالة والكيفية جعلت كثيراً من الناس بل معظمهم يحترمونه ويجلونه، ويعبرون عن تقديرهم له وتعاطفهم معه بوسائل كثيرة، وكان الإمام بهذه العبادة قد كسب قلوب جمهور كبير من الذين يعرفونه ويعيشون معه في المدينة، ولما اشتهرت عنه هذه الظاهرة كصفة بارزة فيه وأنه ذلك الإنسان المنصرف عن الدنيا الزاهد في لذاتها المشتغل بعبادة ربه. أخذ هذا الاحترام والإجلال يتصاعد وخصوصاً حينما يلمسون منه أعمالاً وممارسات لم يلحظوها في غيره. فبكاؤه لا ينقطع وذكره لله لا ينفك ويخاف الآخرة كما لو كن قد رآها وشاهد عرصاتها ويدعم هذه الممارسات العبادية الإنفاق الواسع والبذل المستمر والعمل الصالح وحب الآخرين. فأخذ التقديس يحل محل الاحترام والإجلال ويتصاعد وعلى مر الأيام والسنين، وأخذ الناس يعترفون بفضله ويفضلونه على كثير من حوله ممن هو على شاكلته ونمطه من العبادة أو الزعماء الدينيين من بني هاشم أو غيرهم.

فقد روى «أن رجلاً قال لسعيد بن المسيب ما رأيت أحداً أورع من فلان؟ قال سعيد هل رايت علي بن الحسين؟ قال لا قال سعيد ما رأيت أحد أورع منه»[١١٠].

وعن الزهري وغيره من رجالات ذلك العصر قولهم المشهور (ما رأيت هاشمياً أفضل من علي بن الحسين)[١١١].

---

١١٠ ـ كشف الغمة أحوال الإمام علي بن الحسين (عليه السلام).
١١١ ـ البحار جزء ٢٦ باب ٥ ـ ٣٥.

وكان يقول أيضاً (لم أدرك أحداً من أهل هذا البيت افضل من علي بن الحسين)[112].

وروى حرب الصحاف عن سعيد صاحب الحسن بن صالح قال: «لاني لم أر أحداً أخوف من الحسن بن صالح حتى قدمت المدينة فرأيت علي بن الحسين فلم أر أشد خوفاً منه كأنما أدخل النار ثم أخرج منها لشدة خوفه عليه السلام».

وهناك روايات أخرى كثيرة تدل على تقديم الإمام على كثير من الزعماء والرجال البارزين آنذاك.

وبهذا نخلص إلى أن عبادة الإمام وبالكيفية والكمية التي كانت بها، أثمرت وساهمت في تركيز زعامة الإمام في الأمة وتثبيت إمامته وقدسيتها عند شيعته.

السلطة وظاهرة التعبد

ومن الفوائد التي ترتبت على ظاهرة التعبد التي برزت في حياة الإمام اطمئنان السلطة وأجهزتها منه واعتباره رجلاً منشغلا عن التفكير في الإمارة والخلافة بل هو مشغول بنفسه وبعبادته.

فمن جملة مقاصد الإمام وضوح عبادته وانكشاف وضعه الرباني، أن يحافظ على نفسه من تعدي السلطة ويجتنب المواقف المحرجة تجاه الدولة وخصوصاً وهو إمام الشيعة وابن الحسين الثائر ضدها.

ولقد نجح الإمام في أن يطبع حياته بهذا الطابع السلمي وأن يطمئن السلطة منه اطمئناناً بعيد المدى وأن يتخلص من كثير من المشاكل والمضايقات التي كادت تقع عليه ومثال ذلك أن عبد الملك أراد أن يتخلص من الإمام وأن يقضي على كل احتمال خطر يصدر منه تجاه حكمه ولكن الزهري أبعد هذا الوهم عنه وقال له (ليس علي بن الحسين حيث تظن إنه مشغول بنفسه) وفر

---

١١٢ ـ البحار جزء ٢٦ باب ١١ ـ ١٠.

عبد الملك حينما علم أن الإمام بعيد كل البعد عن أن ينازعه أو يخالفه في ملكه مجيباً للزهري (حبذا شغل مثل ما شغل به)[١١٣].

وفي بداية أخرى نتلمس قصد الإمام، في أن يؤكد اطمئنان الدولة منه فقال عليه السلام لعبد الملك بعد أن وجده متواصلاً بالعبادة منشغلاً بها (ولولا أن لأهلي علي حقاً ولسائر الناس من خاصتهم وعامتهم علي حقوقاً لا يسعني إلا القيام بها حسب الوسع والطاقة حتى أؤديها إليهم لرميت بطرفي إلى السماء وبقلبي إلى الله ثم لم أرددهما حتى يقضي الله على نفسي وهو خير الحاكمين)... ثم بكى الإمام وبكى عبد الملك معه. وبهذا الجواب نفهم أن الإمام كان يريد أن يؤكد لعبد الملك أنه رجل لا يريد إلا العبادة والتهجد وهو بعيد عما يظن أو يتوهم، وهذا التأكيد من قبل الإمام لعبد الملك كان ضرورياً لتبديد كثير من المخاوف التي كانت تدور حول شخص الإمام، فهذا الحجاج يكتب إلى عبد الملك بأن يسمح بقتل الإمام لكيٍ يثبت ملكه، وأما ابن الزبير فقد أحاطه بالعيون والجواسيس ـ كما مر ـ خوفاً من أن يجتمع عليه الناس أو يطلب الخلافة، إذ أراد ثوار الكوفة من التوابين وأصحاب المختار الارتباط به فدفعهم عنه. فهذه الأحداث كانت تنبه الدولة إليه وتتخوف من شخصه، ولكن حنكة الإمام وبصيرته هي التي دفعت عنه كل تلك الأخطار حتى قال في حقه السفاح مسلم بن عقبة قائد الجيش الأموي بواقعة الحرة (هذا الخير الذي لا شر فيه مع موضعه من رسول الله) ومن المؤكد أن هذا القائد يقصد من الخير أنه لا يعارض الدولة ولا يبغي غائلة أو شراً بأجهزة السلطة والخلافة، وهذا القول من هذا السفاح لأكبر دليل على نجاح الإمام وتحقيق هدفه من اطمئنان الدولة منه.

---

١١٣ ـ كشف الغمة، أحوال الإمام علي بن الحسين.

الانحلال وظاهرة التعبد

حينما اهتم الإسلام بطهارة الحكم وأكد على ضرورة التقوى والالتزام في شخصية الخليفة لم يكن ذلك نه إلا بسبب الآثار الكبيرة المترتبة على جسم الأمة. لأن انحراف الحكم يؤول تدريجاً إلى انحلال المجتمع وإلى تفشي الحرام فيه. وحينما يؤول الأمر إلى طبقة من الحكام فارغة روحياً وعقائدياً، فإن بذرة المعصية ستنمو وان المظاهر المجرمة ستبدأ بالظهور في الأمة وتتوسع تدريجياً لعدم قدرة هؤلاء على ضبط الأمة والمحافظة على التزامها فضلاً عن تشخيص المجرم والتضييق عليه في أول نشوئه.

ولما استحوذ على السلطة بنو أمية وتولى الأمر فساقهم وانغمسوا في الرذيلة وأباحوا المجون، وبذلوا الأموال من أجل اللعب واللهو المحرم، فكان لابد وأن يتحلل المجتمع وتضعف روابطه الدينية والتزاماته الروحية وينتشر الفساد تدريجياً وتكثر مجالس الباطل والحرام.

وكانت الآثار السلبية التي خلفتها الفتوحات من الاحتكاك والاختلاط مع المجتمعات الكافرة والأموال والثروات الكبيرة التي صارت بيد الحكام ورجال الدولة والمنتفعين فنشأت الطبقات المترفة، وكان لنشوئها الآثار البالغة في شيوع الترف ونشر الفساد، وآل الأمر في المجتمع الذي عاشه الإمام وخصوصا في المدينة ومكة إلى التحلل خلقياً وأن يضعف إسلامياً وروحياً، وعشعشت فيه الرذيلة وبذرت فيه الفساد الأخلاقي والتحلل من القيم الإسلامية ويرجع سبب ذلك كله إلى:

١. انحراف الحكم وتميع طبقة الحكام.

٢. الآثار السلبية للفتوحات التي قامت بها الدولة.

وكان لابد من عمليات وقائية وعلاجية لهذا المجتمع المريض، ولابد من عمليات مضادة لسريان ذلك الوباء في باقي أبناء الأمة، والحد من توسع

وتلويث كل أبنائها وتحصين البذور الصالحة المؤمنة من الانحراف والتحلل والتميع.

فكانت حياة الإمام الروحية والاتجاه العبادي الذي عاش به وسط الأمة وانشغاله عن مفاتن الحياة وانصرافه عن لذائذها إلى التضرع والتهجد والعبادة إنما هي عملية صد وعرقلة لسريان الوباء ولتفشي المرض ولزيادة الانحلال في المجتمع.

فأراد الإمام بكثرة عبادته وبالكيفية التي كانت عيه أن يؤسس في الأمة اتجاها يعاكس ويضاد الاتجاه المادي المتحلل، ويعمل على تصعيد المستوى الروحي والمعنوي لأبناء الأمة، ويغدو نموذجاً يمكن أن يقتفيه الذين من حوله من أصحابه وشيته بل والمسلمون جميعاً.

وكان الاتجاه الروحي في حياة الإمام بمثابة وجود الطبيب الحاذق وسط المجتمع المريض، فمهما كان المرض عميقاً ومتفشياً في المجتمع فإن لنصائح الطبيب وإرشاداته الأثر الكبير في التقليل من وطأة المرض والتقليص من آثاره، بل ونجاة البعض منه لا محالة.

وكما أن وجود العالم المثقف في وسط ما يؤدي إلى تصاعد المستوى العلمي والثقافي لأولئك الذين يعاشرونه ويصاحبونه، وعلى مدة[١١٤] وجوده تكثر فائدته ويتوسع تأثيره، فكذلك آثار عبادة الإمام في مجتمعه وعيشه بذلك النمط الروحي الرفيع فيما بينهم، خصوصاً والأمة تشاهد منه تلك العبادة المخلصة والنفس المؤمنة والأخلاق السامية طوال ربع قرن أو أكثر.

---

١١٤ . ولد الإمام زين العابدين (عليه السلام) سنة ٣٢ وتولى الإمامة بعد استشهاد الحسين (عليه السلام) واستشهد بالسم سنة ٩٥ فتكون مدة إمامته حوالي أربع وثلاثين سنة.

البشرية في طريقها إلى الله بحاجة إلى نماذج تمثل الوجه العملي من الحية الدينية والمواقف الربانية، ولا يمكن للتربية أن تنجح وتؤثر إلا بأن تدعم النظرية بممارسات عملية وأن تتجسد الأفكار والمفاهيم في حياة دعاتها.

وكانت حياة الأئمة عليهم السلام نماذج مثالية تربوية للأجيال ليقتفوا آثارها، وينتهجوا مسالكها، فلم تكن حياتهم لأنفسهم بل ولم تكن لجيلهم فحسب، وإنما كانت دروساً للأجيال وتجسيدا للإسلام ونوراً يستضاء به في ظلمات الحياة.

وأتحف الأئمة التراث الإسلامي بنماذج عالية وصور ناصعة يحتاجها المؤمنون والدعاة في مسيرتهم إلى الله وتعينهم على فهم الطريق وعلى الالتزام به، فكانت حياة الأئمة تستوعب كل التفاصيل التي تحتاجها الرسالة وأبناؤها على مر التاريخ، فهم القرآن الناطق والإسلام العملي الذي من الله به على الخلق.

وكما أن ثورة الحسين عليه السلام ليست نهضة ضد حكم يزيد فقط. وإنما هي درس بليغ ورسالة تاريخية خالدة للأمة المسلمة على امتداد عمرها الطويل فكذلك عبادة الإمام زين العابدين عليه السلام، تلك العبادة التي كانت بحق أطروحة تاريخية للأمة في شكلها وحجمها وكانت نموذجاً رساليا ومثالياً يقتفى أثره ويتعلم منه المؤمنون.

وكما أن الحسين عليه السلام قدوة لنا عند الثورة على الظلم والتضحية من أجل الرسالة، والإمام الكاظم عليه السلام قدوة لنا في كظم الغيظ والصبر الجميل وتحمل أعباء السجون والمعتقلات، والإمام الصادق قدوة لنا في العلم والجهاد الفكري، فكذلك الإمام زين العابدين عليه السلام قدوة لنا في التربية الروحية وطريقة التعامل مع الله والدعاء والابتهال إليه.

فقد قدم الإمام الحسن عليه السلام للأمة بصلحه أطروحة العمل السلمي والمحافظة على البذور الصالحة من المؤمنين وشيعة أهل البيت.

وقدم لنا الإمام الحسين عليه السلام أطروحة الثورة ضد الظلم والفساد، وقدم لنا الإمام السجاد عليه السلام أطروحة العمل العبادي ضد الانحراف الأخلاقي في جسم الأمة، ولقد تسربت روح عبادته إلى الكثيرين حيث ظهر هناك بعض المتصوفين متأثرين بعبادته، فكسوت الإمام علي عليه السلام وصلح الحسن عليه السلام وثورة الحسين عليه السلام وعبادة الإمام السجاد عليه السلام وسجن الإمام الكاظم عليه السلام كل تلك المنعطفات والأحداث إنما هي دروس عملية لنا وتربية إسلامية للأجيال. وعلى ضوء هذا لا بد أن نقول أن الإمام عليه السلام كان يقصد من شدة عبادته أن يقدم نموذجاً رسالياً كبيراً في الاتجاه الروحي والتربية الإيمانية.

ولابد من أن تظهر عبادته أمامٍ الآخرين لكي تؤثر فيهم.

ولابد أن تتضمن عبادته دروساً لكي يتعلم منها الناس.

وهكذا كانت عبادته أمام الناس ولعله كان يتقصد في ذلك، لأنها عبادة لم تكن لنفسه فقط وإنما هي دروس بليغة للآخرين، وحاشا الإمام أن يفوت فرصة يستطيع بها أن يؤثر فيمن حوله.

وجاءت بعض الروايات التي تبين كيف كان الإمام يقوم ببعض ممارساته العبادية أمام الناس. فمثلاً الإمام الباقر عليه السلام كان يصف عبادة أبيه فيقول: ((لم يذكر أبي نعمة الله إلا سجد ولا قرأ آية فيها سجدة إلا سجد ولا دفع الله عنه سوءاً إلا سجد ولا فرغ من صلاة مفروضة إلا سجد ولا وقف لإصلاح بين اثنين إلا سجد))[115].

وهذه الأعمال لابد وأن تقع أمام الآخرين فيتعلم منها الناس هذه الخصلة الحسنة وكانت قراءته للقرآن يسمعها الناس، حتى قيل عنه ((إنه أحسن الناس

---

١١٥ ـ معاني الأخبار للصدوق ٢٤.

صوتاً في قراءة القرآن وكان السقاؤون يمرون ويقفون عند بابه يستمعون قراءته» [116].

وهناك أحاديث كثيرة كلها تتضمن أنه كان حينما يخرج إلى مكة ويخرج معه الناس ينزل في بعض المنازل ويصلي ويسبح في سجوده ويطول به الدعاء والتضرع حتى يجد الناس في عبادته ما يجلو بصيرتهم عن هذا العظيم [117].

وتجد أن كثيراً مما نقل عن عبادته أنه كان يتعبد أمام الآخرين حتى أن بعضهم يبكي لما يراه فيه من جهد وفزع ويخاف منه على حياته.

وكان الجد الذي يرونه في عبادته واصفرار لونه وخوفه الشديد من الله كاشفاً لهم عن تقصيرهم في عبادتهم، ومبعداً للعجب في نفوسهم حتى قال له أحدهم بعد أن وجد منه تلك العبادة وذلك الخوف من الله وهو يبكي (يا بن رسول الله ما هذا الجزع والفزع ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جانحون، وأبوك الحسين وأمك فاطمة الزهراء وجدك رسول الله..) [118] فهذا التأثير التربوي لعبادة الإمام هو أحد مقاصده الشريفة من إظهار عبادته أمام الناس.

أما مضامين العبادة التي برزت في حياته الشريفة من الدعاء والمناجاة فهي تمثل الجانب النظري من التربية. فإنك تجد في أدعية الإمام الدروس الفكرية تتخلل رقة الدعاء وتجد المفاهيم الإسلامية في كلمات المناجاة.

نلاحظ مثلاً أن الإمام يوضح لك عن طريق الدعاء كيف تتعامل وكيف تدعو وكيف تفكر، كما يوضح ما هي المسائل التي جيب أن تؤمن بها أو ترفضها، ويرشدك خلال الدعاء والمناجاة كيف يجب أن يكون اعتقادك وكيف يجب أن يكون سلوكك فيوضح لك مثلاً سبب الدعاء، ومتى يكون وكيف

---

١١٦ ـ البحار جزء باب ٥ ـ ٤٥.

١١٧ ـ راجع البحار جزء ٤٦ ٥ ـ ٧٥.

١١٨ ـ البحار ج ٤٦ باب ٥ ـ ٧٥.

يستجاب، وما هو الموقف عند عدم الاستجابة، ويعلمك أيضاً أصول الدين كلها من التوحيد والنبوة والمعاد ويتناول الإمام في أدعيته مختلف المسائل الحياتية ليوضح فيها الموقف الإسلامي الصحيح، وإنك لتجد حينما تقرأ أدعية الإمام أنك تدعو وتتثقف في آن واحد، ويكفينا أن ندرك حرص الإمام على هذه الدروس وإيصالها للآخرين من بعده في الحفاظ على الصحيفة السجادية وإيداعها عند أولاده وحرصهم عليها.

بعد كل هذا، هناك إشكالان يتعلقان وينبعان من ظاهرة التعبد وينبغي الجواب عليهما:.

الإشكال الأول:

إننا قلنا كثيراً أن عبادة الإمام وتفرغه لها كانت تمثل أكبر نموذج سجله الأئمة للإنسان العابد الزاهد، وتوجه الإمام للعابدة وانصرافه للدعاء والابتهال إنما كن بسبب الظروف التي أحاطت به وأجبته على الانزواء عن الأحداث وكان هذا الانعزال سبباً مباشراً لبروز ظاهرة التعبد، وأن هذه الظاهرة تميزت بها حياة الإمام دون غيره من الأئمة.

فكيف تفسر تلك الأقوال المعروفة عن الإمام والتي تتضمن الإشارة لعبادة جده الإمام علي عليه السلام وأنه عليه السلام لا يقوى عليها وأن عبادته ما هي إلا شيء يسير من عبادة علي بن أبي طالب عليه السلام وهذه الأقوال تدل[119] دلالة واضحة على خلاف ما أشرنا إليه سابقاً، وتخالف ما فسرنا به هذه الظاهرة وفوائدها.

---

١١٩ - جاء في رواية (ولقد دخل أبو جعفر ابنه عليه (الإمام السجاد) فإذا هو بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد وقد اصفر لونه من السهر ورمضت عيناه من البكاء ودبرت جبهته وانخرم أنفه من السجود وقد ورمت ساقاه من القيام للصلاة... فبكى ابنه أبو جعفر لما رآه في تلك الحالة فالتفت إليه الإمام فقال يا بني إعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي بن أبي طالب فأعطيته فقرأ فيها شيئاً يسيرا ثم تركها من يده تضجرا وقال من يقوى على عبادة علي بن أبي طالب؟.

والجواب على هذا التساؤل يعتمد على توضيح أمرين مهمين:

أولاً: أن لمصطلح العبادة معنيين: الأول هو المعنى الخاص الذي يتناول الصلاة والصيام والحج والزكاة وما تابعها من دعاء وابتهال وتهجد. والمعنى الأعم، والذي يشمل كل عمل مرغوب به شرعاً ويأتي به الإنسان بقصد القربة، كالتصدق على الفقير بقصد القربة . والإصلاح بين اثنين بقصد القربة عبادة، والحكم بين الناس بقصد القربة عبادة، وشرب الماء بقصد القربة عبادة.

ثانياً: حينما ندرس تاريخ الشيعة نجد أنهم يعتبرون أنفسهم شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام وأن أعداءهم من الأمويين إنما يلاحقونهم ويسومونهم العذاب باعتبارهم يوالون ويحبون الإمام علياً عليه السلام ويفضلونه على باقي الصحابة[١٢٠] وإنما رفع الأمويون شأن الصحابة والخلفاء الأوائل بواسطة الروايات الكاذبة، من أجل طمس[١٢١] فضائل أهل البيت وخصوصاً الإمام علياً عليه السلام، وكانت الدسائس الأموية واساليب السلطة كلها تتركز لتشويه مناقب الإمام علي عليه السلام وللحط من منزلته، ومما يبين لنا تكاثف الجهود الأموية للحط من مكانة الإمام علي عليه السلام ما جاء في بعض الروايات من أن جابراً شكا إلى الإمام السجاد جور بني أمية وأتباعهم وأنهم قد قتلونا ولعنوا مولانا أمير المؤمنين على المنابر والأسواق والطراقات حتى إنهم يجتمعون في مسجد رسول الله فيلعنون علياً علانية ولا ينكر أحد ذلك،

---

١٢٠ ـ مثال ذلك ما جاء في البحار جزء ٤٦ باب ٨ أن حرة بنت حليمة السعدية مرضعة النبي مثلت أمام الحجاج فسألها أنت حليمة، فقالت فراسة من غير مؤمن فقال لها الله جاء بك فقد قيل عنك إنك تفضلين عليا على أبي بكر وعمر وعثمان. وجاء في كتاب الأغاني جزء ٢٢ ص ٢٥ أن خالد القسري أحد ولاة مكة في زمن الإمام ثم صار واليا على العراق طلب من أحدهم أن يكتب السيرة فقال له: فإنه يمر بي الشيء من سيرة علي بن أبي طالب أفأذكره فقال: لا إلا أن تراه في قعر جهنم.

١٢١ ـ راجع فصل حكم معاوية في القسم الثاني من الكتاب.

فإذا قام أحد ينكره أخذوه وقالوا هذا رافضي، وترابي وجاءوا به إلى أميرهم[122].

وكان مقابل هذا العمل المكثف من قبل السلطة عمل الأئمة في اتجاه مضاد للحفاظ على قدسية الإمام علي عليه السلامٍ وتأكيد ما جاء في حقه ونسبه كل البطولات المادية والمعنوية إليه لكي يبقى رمزاً للتشيع وعنواناص كبيراً لالتفاف الناس حول أهل البيت عليهم السلام.

وبعد توضيح هذين الأمرين يمكن أن نحل الإشكال ونجيب عن السؤال بأن مقصود الإمام من الإشادة بعبادة علي عليه السلام، والتأكيد على أن عبادته ما هي إلا جزء يسير من عبادته إنما هو العبادة بالمعنى الثاني أي قيام الإمام علي عليه السلام بأمور الدولة والحكم بين الناس وإدارة القضايا العامة وهي لأكبر أجراً وأعظم ثواباً من عامة الصوم والصلاة والدعاء، وكان هدفه من الإشارة تلك هو التأكيد على منزلة الإمام علي عليه السلام وأفضليته حتى بالنسبة إليه.

وما يقرب هذا المعنى الذي ذهبنا إليه أن الرواية جاءت عن طريق الإمام أبي جعفر عليه السلام وهو يحدث أصحابه وجلساءه مشيراً لهم بذلك إلى عظمة أبيه وما كان عليه من جهد العبادة، وأراد عليه السلام بنفس الوقت أن يبين لهم أفضلية الإمام علي عليه السلام بهذه الطريقة الحكيمة.

ولعل بواسطة هذا العمل المركز من قبل الأئمة ونسبة ذروة الفضائل والمناقب إلى الإمام بما يناسب فهم شيعتهم آنذاك، حافظ على تاريخه المجيد من أن يطمسه أعداؤه ومناوئوه.

---

١٢٢ ـ الزام الناصب ص ٣٧ طبعة النجف ١٩٦٣.

الإشكال الثاني:

لقد تبين فيما سبق أن عبادة الإمام كانت ذات أهداف ومقاصد وأن الإمام كان يظهر بعض ممارساته العبادة أمام الناس ويريهم انشغاله وانصرافه إليها كي تطمئن السلطة ويحقق النموذج المثالي، ويعلم الآخرين ويستقطب الناس.

فهل معنى ذلك أن عبادته كانت صفة عارضة عليه وأن ممارساته كانت مقتصرة على تحقيق ما يرجوه منها فهي خالية من مضمونها الإسلامي وبعدها الروحي، وهل يليق بنا أن نفسر تلك العبادة العميقة التي برزت في حياة الإمام على أنها وسيلة لتحقيق أهداف أمته؟.

والجواب على هذا الإشكال يتوضح بذكر النقاط الآتية:

أولاً: سبق وان بينا أن ظاهرة التعبد التي برزت في حياة الإمام كان سببها المباشر هو الظرف المحيط به عليه السلام، فكما أن الظروف هي التي أجبرت الإمام الحسن عليه السلام على الصلح والإمام الحسين عليه السلام على الثورة فكذلك هي التي دعت الإمام للانزواء والانصراف إلى العبادة.

ثانياً: إنه إذا كان بالإمكان أن يستثمر الإمام هذا الانزواء والتعبد في تحقيق أهداف معينة ومصالح عامة، فإنها فرصة لا يليق بالإمام أن يفوتها بحكم منصبه الإلهي ومهمته القيادية في الهداية والإرشاد والتعليم.

ثالثاً: إنه قد يصعب على الإنسان العادي أن يجمع بين عبادته لربه وتأثير هذه العبادة في الناس، حيث يصعب عليه الإخلاص فيها حينئذ، أما الرجل الكبير في إيمانه العميق بإخلاصه فيستطيع وبسهوله أن يعلم الناس بعبادته دون أن يشعر بها شيء من الإشراك أو الرياء، أو ليس من الممكن أن يحث إمام المسجد المصلين على التنفل بإتيانها أمامهم دائماً ويحثهم على الزيارة للأماكن المقدسة بالتردد عليها، ويعلمهم الإحسان والتصدق بإعلانه أمامهم دون أن يؤثر ذلك القصد في توجهه وإخلاصه؟.

ومن هذا الباب كانت عبادة الإمام الفريدة فلا يمنع حينئذ أن نتصور أن الإمام كان مخلصاً بعبادته لله، وكان مع ذلك يقصد بها الناس، يعلمهم ويرشدهم ويدفع بهذه العبادة محذور القضاء وسيئات الدهر.

٣ ـ ظاهرة الإعتاق

مما اشتهر به الإمام زين العابدين عليه السلام كثرة شرائه للعبيد وإعتاقهم في كل سنة وأصبحت ظاهرة الإعتاق من الظواهر البارزة في حياته الشريفة، وهنالك منطلقان يمكن أن نفسر بهما اهتمام الإمام بالعبيد وكثرة إعتاقه لهم.

المنطلق الأول:

(الخلق الإسلامي) حيث أراد الإمام بحسن رعايته للعبيد وبتحريرهم أن يكون قدوة صالحة للأمة، وأن يبلور نموذجاً إسلامياً واقعياً في المجتمع، فأراد الإمام بإعتاقه المستمر ولأعداد كبيرة من العبيد أن يحث الآخرين على هذه العبادة الإسلامية.

ومن جهة أخرى فإن حث الأمة آنذاك على الاعتاق كان عملاً ضرورياً بحكم الأعداد الكبيرة من العبيد التي دخلت المجتمع. فقد قيل أن الزبير بن العوام كان يملك ألف عبد وألف أمة[١٢٣] كل ذلك نتيجة للفتوحات وتوسع البلاد الإسلامية فأخذت جموع العبيد تزداد يوماً بعد يوم وخصوصاً في زمن الإمام.

ويمكن أن نتصور هذه الأعداد الضخمة من العبيد التي دخلت المجتمع الإسلامي إذا علمنا أن عملية فتح واحدة كان فيها وارد الدولة فقط من العبيد ستين ألف، وأن امرأة عطارة اشترت خمسمائة رأس من العبيد وأن العبد كان يباع بأزهد الأثمان[١٢٤].

---

١٢٣ ـ فجر الإسلام لأحمد أمين ص ٩٠.

١٢٤ ـ الإمامة والسياسة، راجع فصل الفتوحات في القسم الثاني.

فتأكيد الإمام على عبادة الإعتاق إنما كانت لأجل إحداث حالة من التوازن في المجتمع بين الأعداد الجديدة منهم والأعداد المحررة، لأن كثرة العبيد في المجتمع تعرض حياتهم ووجودهم إلى متاعب وآلام بحكم ابتذالهم ورخص أثمانهم حتى وصل الحال بأن يباع العبد بقبضة من فلفل المطبخ[١٢٥].

المنطلق الثاني:

هو العمل الرسالي الهادف حيث حل الاضطراب السياسي في البلاد، وضيقت الظروف الحرجة على الإمام الاتصال بالناس والانفتاح عليهم وأجبرته على الانزواء والتفرغ للعبادة، كما أن الأحداث الدامية والملاحقات حذرت الشيعة من الاتصال به والتزود منه، بل ومنعت المسلمين من التعرف عليه وعلى شخصيته العظيمة، فاختار الإمام العبيد والرقيق كوسيلة للاتصال بالناس وواسطة للتعرف به وبمناقبه وفضائله، إضافة إلى جعل هؤلاء العبيد شيعة له ودعاة إلى إمامته بعد إعتاقهم وتحريرهم.

وكان اهتمام الإمام بالعبيد وإعتاقه المستمر لهم، خطة حكيمة لم ينتبه لها الأعداء ولم تثر السلطة عليه ، لأن ظاهرها العمل العبادي والمثل الأخلاقية.

ولقد كان الأئمة جميعاً يتواصلون في اهتمامهم بالعبيد ورعايتهم وحسن السيرة معهم، وعلموا الأمة الخلق الإسلامي الرفيع للتعامل معهم، وبادلهم العبيد هذا الحب والتقدير والاحترام، واهتمام الإمام بالعبيد كان عملاً رساليا تميز به خط الأئمة عموماً والإمام السجاد عليه السلام خصوصاً، وبذلك كسبوا قلوب طائفة ن الناس وهم الموالي، وحولوهم إلى أناس يودونهم ويتعاطفون معهم بل وقد يسيرون على نهجهم.

إن أعداد الموالي أخذت تزداد يوما بعد يوم في المجتمع الإسلامي باعتبار أن الموالي آنذاك كانوا يمثلون المسلمين من غير العرب، وهم إما أن يكونوا أرقاء ولحقهم الإعتاق فصاروا موالي، أو أنهم دخلوا الإسلام طوعاً وعقدوا

---

١٢٥ ـ الإمامة والسياسة. فتح الأندلس وشمال أفريقيا.

حلفاً مع بعض القبائل فصاروا يسمون موالي تلك القبيلة[126] وبحكم حركة الفتوحات واستمرار الحروب كان هؤلاء الموالي الرق[127] يزدادون بسرعة كبيرة وأصبح لهم شان عظيم في المجتمع الإسلامي، ويمثلون قوة مهمة فيه، وعاش الموالي في ظل الدولة الأموية كمواطنين من الدرجة الثانية حيث كان الأمويون يحتقرونهم وينظرون إليهم نظرة الازدراء والامتهان حتى فكر معاوية أن يقتل نصفهم ويبقي النصف الآخر (لإقامة السوق وعمارة الطريق) خوفاً منهم على السلطة.

وكان رد الفعل عند هؤلاء الموالي أن كرهوا الأمويين وكونوا عصبية لهم، حتى ظهرت آثارها في كثير من الأحداث التأريخية نتيجة للسياسة الأموية الجاهلية واحتكار العرب لهم.

أما أهل البيت عليهم السلام فقد انتهجوا معهم أحكام الإسلام، ولم يلاق الموالي منهم إلا العدل والحب والرعاية الحسنة كباقي افراد المجتمع، فمالوا إليهم وأحبوهم وشاركوا الأئمة في مواقفهم حتى أن الأشعث بن قيس يعاتب الإمام علياً عليه السلام علي حسن رعايته لهؤلاء الموالي وتقريبهم منه[128].

وبقيت السنين القلائل التي حكم بها علي عليه السلام خير ما يتذكره هؤلاء الموالي عن عدالة الإسلام ونزاهته ونظرته الإنسانية بعد أن عاشوا واقعاً سيئاً طوال حكم بني أمية، وكانت نتيجة كراهة الموالي للأمويين وحبهم لأهل البيت عليهم السلام أن شاركوا في ثورة الحسين عليه السلام وتعاطفوا معها[129] واشتركوا أيضاً وبثقل كبير في ثورة المختار الشيعية وأبلوا بها.

---

١٢٦ ـ راجع كتاب العصبية القبلية لإحسان النصير ص ٦٧ وفجر الإسلام لأحمد أمين ص٩.

١٢٧ ـ جاء في كتاب فجر الإسلام (فلما كثر الرق والعتق كثر استعمال الموالي بمعنى المعتقين).

١٢٨ ـ قال الأشعث للإمام (يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحمراء على ربك) والمراد بالحمراء هنا الفرس المسلمون.

١٢٩ ـ راجع فصل الموالي في كتاب أنصار الحسين ص ١٧١ لشمس الدين.

فكان اهتمام الإمام زين العابدين عليه السلام بالعبيد إنما هو لبنة في ترسيخ علاقة الموالي بأهل البيت عليهم السلام وتنمية تلك العلاقة وتأكيدها.

وكانت أساليب الإمام ذات تأثير بالغ، فحبه واحترامه للعبيد ثم الإعتاق المستمر لهم وبتلك الطريقة الفريدة وحسن مصاحبتهم ورعايتهم كل ذلك كان يعكس في أذهان الموالي والعبيد نظرة أهل البيت عليهم السلام الإنسانية ونزاهتهم وطهارتهم ويبرهن لهم عن رحمة الإسلام وعدالته والمتمثلة فيهم.

ويمكن أن نجمل الأهداف التي كان يرجوها الإمام من اهتمامه بالعبيد وإعتاقهم بما يلي:

١. التأكيد على المثل الإسلامية والأخلاقية النبوية في رعاية العبيد وإعتاقهم.

٢. حث المسلمين على الإعتاق لعلاج أزمة ازدياد الرقيق في المجتمع.

٣. استثمار العبيد كواسطة للصلة بينه وبين الناس وتحويلهم إلى شيعة ودعاة لإمامته.

٤. تنمية الصلة بين الموالي والأئمة واسقطابهم إلى أهل البيت عليهم السلام.

إن حياة العبد تبدأ حين يؤسر في الحرب ثم يملكه أحد المحاربين أو يباع فيشتريه أحد المسلمين وينتقل هذا العبد مع سيده إلى بيته أو يشتغل في شأن من شؤونه ويرتبط به ارتباطاً طبيعياً يؤدي له جميع ما يطلب منه ويقوم بجميع المهام والخدمات المنوطة به.

وإذا تميز هذا العبد ببعض المؤهلات فسوف يحتل موقعاً مهماً عند سيده وخصوصاً إذا لمس منه الإخلاص الطاعة له وكذا العبد يبادل سيده ومولاه الحب إذا وجد منه تعاملاً خاصاً ملحوظاً وقد ينتقل حب العبد لسيده إلى شيء من الإجلال والتقديس إذا لمس منه رعاية وأخلاقاً لم يلحظها عند السادة الآخرين.

وبهذه الصورة كانت رعاية الإمام للعبيد وتعامله معهم، وحرص الإمام على هذا التعامل حتى أحبه العبيد واحترموه وبالغوا في إجلاله، فكان العبد وهو يعمل عند الإمام أو في شأن من شؤونه لا يشعر بكونه عبداً لسيد من حسن المعاملة والرعاية التي يلقاها.

وعمد الإمام إلى العبيد بعد أن ضاقت به سبل الاتصال بالناس والانفتاح عليهم، وكانت خطته بأن يشتري العبد ليعمل في بيته أو في شأن من شؤونه، ثم لا تمر عليه سنة إلا وقد أعتق ولم يبقً مع الإمام عبد أكثر من سنة مطلقاً كما جاء ذلك في المأثور، (وما استخدم خادما فوق حول، كان إذا ملك عبداً في أول السنة أو في وسطها، فإذا كان ليلة الفطر أعتق واستبدل سواهم في الحول الثاني)[١٣٠] وكانت الفترة التي يقضيها العبد في ظل الإمام كافية لتزويده بمعلومات قريبة وملموسة عن الإمام وعاداته وأخلاقه، وخصوصاً إذ بذل الإمام بعض الجهد في تثقيفهم، فتكون هذه الفترة بمثابة دورة ثقافية تربوية يتخرج منها كل سنة ما يقارب العشرين عبداً ليصبحوا أحراراً يعملون في المجتمع كأفراد اعتياديين وهم خريجو معهد الإمام ومدرسته بعد ما شاهدوا فيه الإسلام الحي والأخلاق النبوية الفذة.

ولم يكن الإمام يسمح لنفسه أن يطلق العبيد ويعتقهم إلا بعد أن يكفيهم أمر معيشتهم، حتى لا يكونوا كلاً على الآخرين ويكونوا أحراراً شرعاً وواقعاً (فإذا كان يوم الفطر أجازهم بجوائز تصونهم وتغنيهم عما في أيدي الناس وما من سنة إلا ويعتق فيها بين العشرين إلى أقل أو أكثر)[١٣١] ويمكن أن نذكر الأمور التالية كأهداف كان يقصدها الأمام بتجهيزه لعبيده وتقديم المعونات المالية لهم:.

---

١٣٠ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٩٣.

١٣١ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٩٣.

أولاً: أن يكونوا أقدر على احتلال مراكز اعتيادية في المجتمع والتمكن من خلال ممارستهم لأعمالهم وأمور معاشهم من الاتصال بالآخرين والتحدث معهم مما سمعوه في هذا الرجل الفذ. أما إذا أعتقهم ولم يكن لهم القدرة الكافية على أن يعيشوا كباقي الناس فهم سرعان ما يقعون تحت تبعية رجل آخر وفي دائرة تأثيره مما يجعلهم يضطرون إلى أن يصانوا اتجاهه الخاص، وأن يماشوه لارتباط أمور معاشهم به، وخصوصاً في المدينة حيث جوها المعقد بحكم تواجد أبناء الصحابة والبيوتات التي تتبنى مواقف مناقضة أو غير متعاطفة مع أهل البيت عليهم السلام.

ثانياً: كانت الإعانات المادية تعكس للناس صورة أخلاقية عالية لأن الإعتاق مع أنه عمل عبادي قد رغب إليه الشارع وشجع عليه بتشريعه للمكاتبة والتدبير والمولاة، أما الإمام فكان يتصاعد ويتسامى عن ذلك في عبادته بأن يقدم المال للعبيد، ولم يفكر بالربح عليهم أبداً، وبذلك صار قدوة صالحة في الأمة، ويجب دائماً أن تكون القدوة أعلى مثالاً وأضخم عملاً من أولئك الذين يتأسون بها.

ثالثاً: أن تزويدهم بالهدايا والأموال إنما كان جزءاً من الإنفاق الواسع الذي تبناه الإمام باعتباره الرقيق أناس فقراء محرومون، ومن جهة أخرى فهو يحقق بعطائه هذا عملاً يركز انتباه الأمة إليه ويقنعهم بفضله وشرفه، لأن تجهيز العبد بالمال بعد إعتاقه عمل فريد لم ينقل عن أحد غيره، لكون الإعتاق بحد ذاته يعتبر خسارة مالية للسيد فيحتاج إلى تشجيع وحث كبير للإقدام عليها في حين أن الإمام كان يتبرع من ماله بما يسد به حاجتهم فشد الأنظار إليه وركز من انتباه الأمة إلى سلوكيته المثالية الرائعة.

رابعاً: التأثير على العبيد وشدهم بالإمام بعد إعتاقهم لأنهم سيحملون معهم ذكرياتهم الجملية، وسوف لن ينسى هذا العبد الإحسان الكبير والعمل الجليل الذي اسداه إليه الإمام الذي بواسطته عاش مطمئناً على مستقبله المعاشي مصوناً عما في أيدي الناس.

خامساً : التأثير في الموالي باعتبار أن عبيد الإمام بعد إعتاقهم سيتميزون في وسط هذه الفئة عن غيرها لأنهم خرجوا إلى عالم الحرية والإعتاق ومعهم مال وهدايا يعيشون بها ويرتبون بها أمور معاشهم مما يجعلهم يلفتون أنظار باقي الموالي إليهم، وهذا الالتفات والتوجه سيتجمع ويتركز حول شخص الإمام بالذات لأنه السبب في هذا الانتعاش، وهذه المعونة المالية، ويدل على حبه لهؤلاء ونظرته المحترمة إليهم وتفاعله مع آمالهم وآلامهم، وسيؤدي هذا العمل المبارك إلى استقطاب الموالي إليه، وخصوصاً وهو ابن أولئك النفر الذين كانوا يواصلون احترام الموالي ويحبونهم. مما يزيد في توثيق صلة الفئة بالأئمة وبالإمام بالخصوص.

وكان المجتمع يستغرب من سلوك الإمام مع عبيده ومواليه ورعايته لهم وتعرض الإمام لبعض الانتقادات بسب علاقته بهؤلاء العبيد، ومن تلك الأمور التي انتقد عليها زواجه من أم ولد لعمه الحسن في وقت كان أهل المدينة لا يرغبون بنكاح الإماء وكذلك انتقد على تزويجه مربيته التي احتضنته والتي كان يعاملها كأمه زوجها بمملوك له.

ومن أولئك الذين عاتبوه الخليفة عبد الملك حيث كتب إليه (يا علي بن الحسين كأنك لا تعرف موضعك من قومك وقدرتك عند الناس تزوجت مولاة وزوجت مولاك بأمك) وأراد بذلك أن يحط من منزلة الإمام عند الناس وأن يحرجه لإقدامه على عمل غير لائق به وبنسبه الشريف. فأجاب الإمام منتبهاً إلا ما كان يقصده عبد الملك في رسالته (فهمت كتابك ولنا أسوة برسول الله فقد زوج زينب بنت عمه زيداً مولاه وتزوجت مولاته صفية بنت حي بن أخطب) فأراد الإمام بهذا الجواب ن يوضح الحكم الشرعي والسنة النبوية ، ولم يشأ أن يحاجج عبد الملك ويبين له حقيقة الفرق بين أمه ومربيته.

ومن أولئك الذين انتقدوا الإمام أيضاً نافع بن جبير حيث كان من محبي الإمام عليه السلام ، وقال له: أنت سيد الناس وأفضلهم وتذهب إلى هذا العبد وتجلس عنده ويقصد به زيد بن أسلم.

والإمام حينما كان يعتق العبيد أو يتعامل معهم يختلف كثيراً عن باقي الناس، لأن هدفه من الإعتاق والاهتمام كان بعيداً، فهو يريد من العبد وخصوصاً بعد إعتاقه أن يكون مبلغاً، ويحدث الناس عن الرجل الذي كان يعمل عنده ويخبرهم عما شاهد ولمس من هذا العظيم، ولكي يكون الحديث الإخبار باندفاع وحرارة لابد وأن يكون موضوع الكلام مهماً وغريباً، وبدأ الإمام العمل من خلال العبيد وأراد أن يشكل معهم علاقة وطيدة ويخلق أمامهم أحداثاً مهمة لكي ينقلها العبيد إلى الآخرين بدافع وحماس، فكان لا يكتفي بأن يغض عن السيئة ويعفو عنها بل كان يقابلها بالإحسان إليه والتودد معه وقد يطلق رقبته ويحرره من أجل أن يكشف عن نفسه وعظيم منزلته، ويقدم للعبد صوراً ومشاهد عظمية لابد وأن يتحمس لينقلها للآخرين. مثال ذلك ما ينقل أنه (كان عنده قوم أضياف فاستعجل خادماً له بشواء كان في التنور فأقبل به الخادم مسرعاً فسقط السفود منه على رأس ابن لعلي بن الحسين تحت الدرج فأصاب رأسه فقتله فقال علي للغلام وقد تحير الغلام واضطرب أنت حر فإنك لم تتعمد وأخذ في جهاز ابنه ودفنه)[١٣٢] . فإن عملاً كهذا لهو إحسان كبير وفضيلة عظمية ستجعل العبد لا ينساها طوال حياته ويذكرها مع نفسه وللآخرين كلما دار حديث أو سنحت الفرصة، وبذلك يكون هذا العبد واسطة بين الإمام والناس ينقل لهم مآثره ومناقبه وإحسانه عليه بتلك الكيفية وهو لا يعلم أنه يؤدي رسالة حملها إياه إمامه وسيده.

وتجد هذا الهدف من عمل الإمام حينما كان يدخل شهر رمضان فلا يضرب عبداً ولا أمة، وكان إذا أذنب العبد والأمة يكتب عنده أذنب فلان

---

١٣٢ ـ البحار، جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٨١.

وأذنبت فلانة يوم كذا وكذا، وبذلك يكون على كل عبد سجل يحصي به أخطاءه وذنوبه خلال شهر رمضان بانتظار يوم الإعتاق. وهو عيد الفطر فإذا حل العيد جمعهم وأخذ يذكرهم بأخطائهم وذنوبهم خلال الشهر مع تعيين الوقت والفعل فإذا أدرك العبد أخطاءه وتذكر سيئاته وتجمعت عليه واعترف بها يتركه وينتقل إلى الآخر حتى ينتهي منهم جميعاً بعد أن يعترفوا بذنوبهم فيعفو عنهم ويطلب منهم أن يدعوا له بالمغفرة والعتق من النار كما عفا عنهم، فإذا فرغنا من الدعاء بعد أن يرتله هو أمامهم ويرددون معه، يعتقهم ويجزيهم بجوائز تصونهم وتغنيهم عما في أيدي الناس، ثم يبدأ الإمام بعد العيد بفتح دورة جديدة للعبيد الجدد (وما استخدم خادماً فوق حول، كان إذا ملك عبداً في أول السنة أو في وسطها إذا كان ليلة الفطر أعتق واستبدل سواهم في الحول الثاني)[١٣٣] فهذه الجلسلة الصريحة ما هي إلا تجسيد لهم عن فضيلة سيدهم ووسيلة لزيادة العلاقة والارتباط به حتى بعد إعتاقهم، وإلا فالإمام بحد ذاته مستغنٍ عن أن يدعو له بالمغفرة أو أن يهتم وهو سيد الناس بأن يحصي أخطاء عبيده ويسجلها ليذكرهم بها ويعاتبهم عليها. ولكنه يريد أن يبرر لهم فضل عفوه عليهم، وينتزع منهم بهدوء اعترافاً بعظيم منزلته، فهو يطلب منهم الدعاء الاستغفار. وكان أسلوب الترتيل من أشد الوسائل النفسية في التأثير والشد بالإمام)[١٣٤].

ويبدو أن هذه الطريقة من من الإعتاق إنما تشمل أولئك العبيد الذين لم تكن هناك مناسبة مهمة لإعتاقهم أثناء السنة فيبقون إلى نهاية الحول وحلول ليلة الفطر ليمروا بحفلة تخريجية تكون خاتمة لخدمتهم عند الإمام وتكون في نفس الوقت تتويجاً لعمل الإمام معهم، حيث يستشعرون الإحسان والعظمة والفضيلة بأجمل صورها وأبعد معانيها.

---

١٣٣ ـ البحار، جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٨٧.

١٣٤ ـ البحار، جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٩٣.

ويمكن أن تكون فرصة يستفيد منها الإمام لإعتقاهم كحدث مهم ملفت كما في العبد الذي سقط عن يديه السفود على ابنه فقتله، فكان جزاؤه أن أعتقه الإمام. وقد يكون داعي الإعتاق أمراً آخر يمكن أن يخدم أهداف الإمام، ومثال ذلك أن الإمام (عمد إلى عبد كان عنده دفع له عبد الله بن جعفر فيه عشرة آلاف درهم أولف دينار فأعتقه)[١٣٥] لأن إعتقاه لهذا العبد يعتبر عملاً دعائياً كبيراً يكسب به قلوب العبيد والموالي ويزيد به من احترم الناس وتقديرهم له.

وهناك طريقة أخرى كان الإمام يستخدمها في الإعتاق وهي ما تعقب ضرب العبد مثال ذلك (أن مولى لعلي بن الحسين يتولى عمارة ضيعة له فجاء ليطلعها فأصاب فيها فساداً تضييعاً كثيراً غاظه من ذلك ما رآه عنه فقرع المولى بسوط كان في يده...) ثم أن الرواية تكمل القصة بأن الإمام اعتذر منه لضربه وطلب من عبده أن يقتص منه... (فلما لم يره يقتص قال له أما إذا أبيت فالضيعة صدقة عليك وأعطاه إياها)[١٣٦] وفي رواية أخرى (أذنب غلام لعلي بن الحسين ذنباً استحق به العقوبة فأخذ له السوط وقال (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله) فقال الغلام وما أنا كذلك إني لأرجو رحمة الله وأخاف عذابه فألقى السوط وقال أنت عتيق)[١٣٧]. وفي قصة أخرى عن أبي جعفر عليه السلام «أن أبي ضرب غلاماً له قرعه واحدة بسوط وكان بعثه في حاجة فأبطأ عليه فبكى الغلام وقال لله يا علي بن الحسين أتبعثني في حاجتك ثم تضربني، قال فبكى أبي وقال يا بني اذهب إلى قبر رسول الله فصل ركعتين ثم قل اللهم اغفر لعلي بن الحسين خطيئته يوم الدين ثم قال للغلام أذهب فأنت حر لوجه الله)[١٣٨]

---

١٣٥ - البحار، جزء ٤٦ باب ٥ - ٨٥.

١٣٦ - نفس المصدر.

١٣٧ - نفس المصدر.

١٣٨ - البحار جزء ٤٦ باب ٥ - ٧٩.

ومثل ما ينقل من أنه كان حينما يضرب العبد ما يفتأ يرجع إليه ويتجرد له ويكشف عن جسمه ويعطيه السوط ليقتص منه فإذا أبى ـ وكلهم كانوا يأبون ـ فيقابلهم بالإحسان إليهم بالمال ثم يعقبهم بالإعتاق.

هذا النمط من العمل من قبل الإمام أكثر الظن فيه أنه كان يأتي عن قصد مسبق من قبل الإمام من أجل إيجاد حدث ما ومناسبة مهمة يستفيد منها للإعتاق لأن صدور الضرب من الإمام لم يكن سهلاً يسيراً عليه مطلقاً ويدلنا على ذلك أنه كانت له ناقة حج بها عشرين سنة لم يضربها، حتى إذا امتنعت ينزل عنها ويشير إليها بالسوط ويركب عليها مما يكشف لنا نزاهة الإمام، وترفعه عن الضرب حتى للحيوان، ويدلنا أن ضربه للعبيد لم يكن إلا وسيلة لاسطناع حادثة يسجل بها موقفاً رسالياً إلى الأجيال عبر التاريخ، وهي بنفس الوقت تحبب العبد إلى الإمام وتزيد من ارتباطه به حتى بعد إعتاقه. ولم يترك الإمام حادثة أو مناسبة إلا وحاول أن يستثمرها في خدمة أهدافه مع العبيد، واشتهر عنه حبه للعبيد وبتحريره لهم، ونذكر هنا بعض الروايات التي تبين جانباً من رعايته لعبيده:

فقد روي (أنه دعا مملوكه مرتين فلم يجبه، فلما أجابه في الثالثة قال له يا بني أما سمعت صوتي؟ قال بلى، قال فما بالك لم تجبني. قال أمنتك قال الحمد لله الذي جعل مملوكي يأمنني) وهذه الرواية تكشف لنا أسلوب تعامله مع عبيده وتسلط ضوءاً على علاقته بهم، حتى عادوا يأمونه ولا يخافونه، ثم تجد لطافة الإمام في ألفاظه حتى يقول عبده (يا بني) وفي رواية أخرى تشرح لنا علاقته بإمائه (أنه يجمع خدمه كل شهر ويقول إني قد كبرت ولم أقدر على النساء فمن أراد منكن التزويج زوجتها أو البيع أو العتق أعتقتها، فإذا قالت إحداهن لا قال اللهم اشهد حتى يقول ثلاثاً، وإن سكتت واحدة منهن قال لنسائه سلوها ما تريد وعمل على مرادها)[١٣٩].

---

١٤٠ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٨٣.

وإنما كانت هذه العروض بالنسبة إلى الإمام دون العبيد بحكم الأوضاع الخاصة للإمام فقد يرغبن في أن يكن أمهات لسادة ... ولا يرغبن بالإعتاق بسبب ما قد يعانينه بعد الإعتاق حيث لا أسرة لهن ولا معيل، والسبب في رغبة بعض الإمام في البقاء يعود إلى أن خدمته بحد ذاتها لذة لهن وسعادة تفوق ما يمكن أن يحصلن عليه من مكان آخر حتى مع كامل حريتهن.

نجاح الإمام

وقد نتساءل ... وقد وصلنا إلى هذا الحد من الحديث هل حقق الإمام شيئاً من أهدافه في العمل مع العبيد، أي هل تمكن من إعطاء الأمة نموذجا أخلاقياً رفيعاً، واستقطب الموالي تلك الفئة الكبيرة التي كان لها وزنها المؤثر في جميع الأحداث إلى جانبه؟.

وهل استطاع أن يجعل هؤلاء العبيد الذين أعتقهم دعاة إليه وحلقة وصل يعرفون الأمة عن عظيم منزلته وكبير فضله؟.

وللإجابة على هذا التساؤل نقول:

أما نجاح الإمام في إتحاف الأمة بالنموذج الإسلامي، فهذا مما لا شك فيه ويكفينا ما نقلته لنا المصادر التاريخية، وسجله المؤرخون لنا من روايات وأحداث ونصوص في حسن معاملته وعن عظيم رعايته للعبيد.

وأما استقطاب الإمام للموالي والعبيد فإنه يعني ميلهم إليه، وحبهم له وتفضيله على الآخرين. والعثور على نصوص تبرهن ذلك أمر ليس بالسهل لأن الموالي هم جزء من أفراد المجتمع، ومن القواعد الشعبية التي عمل الإمام لكسبها، ولم يتعارف أن تنقل لنا المصادر مواقف خاصة بهذه الفئة دون غيرهم، إلا نادراً مثال ذلك ما جاء في كشف الغمة في معرض ذكره لحادثة ما مع الإمام قوله (وكان يوماً خارجاً عليه السلام فلقيه رجل فسبه فثارت إليه العبيد والموالي)، فهذا نص بسيط ولكنه يكشف لنا عن شدة تعاطف هؤلاء مع

الإمام ومحاولاتهم تأديب الرجل الذي تجرأ على محبوبهم وسيدهم الإمام زين العابدين عليه السلام.

٤- ظاهرة الإنفاق

ومن تلك الظواهر التي برزت في حياة الإمام زين العابدين عليه السلام ظاهرة الإنفاق المتمثلة في كثرة كرمه وتنوع بذله، وغدت هذه الظاهرة التي انفرد بها عن باقي الأئمة من المناقب التي يشار بها إلى فضله وعظيم منزلته، وقد وردت نصوص وأحاديث كثيرة فيها. وعند تفحص تلك المجموعة من النصوص نجدها تشير إلى نوعين من الإنفاق.

النوع الأول:

الإنفاق الفردي الذي كان يقوم به الإمام بسبب أمر ما كإجابة سؤال أو دفع ضرورة أو سد احتياج لمؤمن، وكان بذله يقتصر على حدود ذلك السائل أو المحتاج فقط، ومثال ذلك ما أعطاه الإمام إلى الفرزدق من المال بسبب قطع السلطة لرزقه من بيت المال، وما جاء من أن رجلاً شتم الإمام وأراد غلمانه تأديبه فمنعهم الإمام وأعطاه ثوبه وأمر له بألف درهم فانصرف الرجل مادحاً للإمام مشيداً بفضله ومنزلته، وغير تلك الأحاديث والوقائع التي كثرت في حياء الإمام.

ولم يكن الإمام زين العابدين عليه السلام الوحيد في هذا النوع من الإنفاق والكرم بل نجد مثل ذلك في الحسن والحسين (عليهما السلام) أيضاً وخصوصاً بعد إبرام الصلح بين الحسن عليه السلام ومعاوية.

النوع الثاني:

الإنفاق الجماعي الذي كان يقوم به الإمام ويتمثل بإعانة وإعالة مجموعة من العوائل، وكذلك قيامه بحمل الطعام وتوزيعه على البيوت وتفريق الزاد والكساء عليهم، ودعوة الفقراء والمساكين للطعام على مائدته.

وهذا النوع من الإنفاق لم يبرز في حياة الأئمة الآخرين بالحجم الذي قام به الإمام السجاد، ولكي تكون عندنا صورة واضحة عن حجم هذا الإنفاق وطبيعته نستعرض بعض تلك النصوص التي وردت في شأنه والأحاديث التي جاءت في تبينه ومنها:

«كان علي بن الحسين عليه السلام إذا كان اليوم الذي يصوم فيه يأمر بشاة فتذبح وتقطع أعظاؤها وتطبخ، فإذا كان المساء انكب على القدر حتى يجد ريح المرق وهو صائم ثم يقول هاتوا القصاع اغرفوا لآل فلان، ولآل فلان، حتى يأتي على أخرى القدور ثم يؤتى بخبز وتمر فيكون عشاءه»[١٤٠].

والنص أعلاه يبين لنا أنه يذبح في شهر رمضان فقط ثلاثين شاة على الأقل.

(كان علي عليه السلام يخرج في الليلة الظلماء فيحمل الجراب فيه الصرار والدنانير والدراهم حتى يأتي بابا بابا فيقرعه ثم يناول من يخرج إليه فلما مات عليه السلام فقدوا ذلك فعلموا أن علي بن الحسين كان الذي يفعل ذلك)[١٤١].

(ولقد كان يعول مائة أهل بيت من فقراء المدينة)[١٤٢].

(وكان يقوت مائة أهل بيت بالمدينة وقيل كان في كل بيت جماعة من الناس)[١٤٣].

(وحمل الصدقات حتى أثر ذلك في ظهره وسمي صاحب الجراب)[١٤٤].

---

١٤٠ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٥٣.
١٤١ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٢٨.
١٤٢ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ١٩.
١٤٣ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٧٧.
١٤٤ ـ بلاغة الإمام زين العابدين ص ٢٢٦.

(وكان يقول لمولاه لا يعبر على بابي سائل إلا أطعمتموه، فإن اليوم يوم جمعة)[145].

(وكان الفقراء يتباشرون حينما يرونه قد أقبل إليهم وكانوا ينتظرون على أبوابهم ليلاً من كثرة اعتيادهم عليه. (وكان لا يأكل الطعام حتى يتصدق بمثله).

ولابد أن ندرس هذه الظاهرة دراسة موضوعية ونحن نرفض أن نعتبرها مجرد منقبة وفضيلة اشتهر بها الإمام عليه السلام ونقف عند هذا التفسير البسيط، وإلا لماذا لم تبرز بهذا الحجم عند باقي الأئمة؟ ولماذا لم تظهر بهذا الشكل الجلي إلا في حياة الإمام الرابع؟ فلابد إذن أن تكون هناك أمور وأهداف اقتضت أن يشتهر الإمام السجاد بهذه الظاهرة ويعرف بها.

لقد علمنا مما سبق أن الإمام كانت له ظواهر أخر يعرف بها كالإعتاق والبكاء والعبادة، وأن بعضها قد يكون أبرز من ظاهرة الإنفاق كظاهرة التعبد. وبينا أن دراسة أي ظاهرة يجب أن ترتبط مع باقي الظواهر الأخرى، وعليه فإن جمال هذه الظاهرة لا يتجلى إلا عندما نلاحظ ارتباطها وتأثيرها في الظواهر الأخرى، فإن الناس لا يمكن أن تؤثر فيهم عبادة الإمام أو ممارساته الروحية إذا لم يدعم تلك الروح الطاهرة بالإنفاق والبذل وتزيين دروسه التربوية بكثرة صدقاته وعطاياه حتى يحبه الناس ويقتنعون بحبه لهم، ولا يريد منهم جزاءاً ولا شكوراً.

هذا بالإضافة إلى أن كثرة الإنفاق يضيف قوة فاعلة لبكائه، وخصوصاً ذلك البكاء المرّ الذي كان يصبه للإبقاء على ذكر الحسين عليه السلام ولإشعال الثورة وروح الكراهية ضد الأمويين فانفاقه كان يدل على أن بكاءه لم يكن على دنيا رخيصة أو متاع زائل وإنما هو للظلم الذي حل، والفساد الذي انتشر على يد الأمويين.

---

١٤٥ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٧٧.

وكان ضروريا ان تلتحم ظاهرة الإنفاق مع ظاهرة الإعتاق حتى يمكن لظاهرة الإعتاق أن تؤدي دورها وتأثيرها. لأن المعتق الفقير لا يستطيع أن يؤدي رسالة الإمام بعد إعتاقه وهو فقير.

إضافة إلى ما كان يسببه الإنفاق من رفع لكل الشبهات التي يمكن أن تفسر به باقي الظواهر تفسيراً لا يليق بشأن الإمام ولا يخدم سمعة أهل البيت.

وعلى هذا فظاهرة الإنفاق تختص بوظيفة مكملة لكل الظواهر الأخرى لتؤدي مفعولها ودورها الفعال وهي الإطار الذي يؤطر به باقي الظواهر فيعطيها جمالها ونزاهتها.

فالإنفاق وسيلة ناجحة لكسب قلوب الناس وميلهم. وكان من تلك الوسائل التي اعتمدها الإمام في تحقيق زعامته وإبراز أفضليته ومنزلته لهم، خصوصاً وأن الكرم والإنفاق سجية سائدة في عصره، يعتادها كبراء القوم وأشرافهم، وكان الإمام بواسطة إنفاقه يغطي على كل أولئك الزعماء المعاصرين له وحتى أقطاب بني هاشم. فعبد الله بن جعفر مثلاً كان معروفاً بالكرم، مشهوراً بالجود، لكن الإمام زاد فضله عليه، حتى قيل في شأنه (أنه افضل بني هاشم).

ولم تلتفت السلطة إلى أهداف الإمام من هذا الإنفاق، لأنه ان كان لا يتخلى عن طابعه العبادي الإحساني الذي حافظ عليه الإمام طوال حياته حتى برز أمام الأمة بأنه الرجل المنفق العابد الزاهد، ووصلت أنباء ذلك الإنفاق إلى أطراف بعيدة عن المدينة[١٤٦]

---

١٤٦ . جاء في تاريخ اليعقوبي (ووجه المختار برأس عبيد الله بن زياد علي بن الحسين إلى المدينة مع رجل من قومهن وقال له قف بباب علي بن الحسين فإذا رأيت أبوابه قد فتحت ودخل فذاك الوقت الذي يوضع فيه الطعام. فادخل إليه).

ومن الوسائل التي جعلت إنفاق الإمام يؤثر في الآخرين ويكسب قلوبهم وعواطفهم إليه إضافة إلى حجم هذا الإنفاق وسعة البذل هو (أخلاقية هذا الإنفاق ونزاهته)، فالإمام كان يقصد البيوت ليوزع عليها المال والصدقات، ويقف على الطعام ليفرقه على العوائل والمنازل، ويناول المساكين والفقراء بيده[١٤٧]. ولم يكتف بذلك بل يقبل الفقير قبل أن يناوله الصدقة[١٤٨].

ولم يكتف الإمام بأخلاقية الإنفاق فقط بل ضم إليه حكمته في التأثير بهذا الإنفاق وتركيزه بالنفوس، فكان عليه السلام يرفض أن يبيع ملابسه، وإنما يتصدق بها وكان يشتري الكسوة الفاخرة من الخز التي تقدر بخمسين ديناراً ليتصدق بها عند انقضاء الشتاء، واستهدف الإمام من ذلك أن يكون هذا الإنفاق مؤثراً في نفوس الناس وتأكيداً لارتباط الفقراء والمساكين به، لأنهم سيرتدون ملابسه من بعده ويذكرونه على الدوام.

وإني أعتقد أنه جرّاء ذلك أصبحت ثلة كبيرة من الناس ترتدي ملابس الإمام وتتعاطف معه نتيجة تصدقه بالكسوة الثمينة التي يرغب فيها كل الناس، فكان إذا انقضى الشتاء تصدق بكسوته وإذا انقضى الصيف تصدق بكسوته، وكان يلبس من خز اللباس فقيل له تعطيها من لايعرف قيمتها ولا يليق به لبسها فلو بعتها فتصدقت بثمنها، فقال إني أكره أن ابيع ثوباً صليت فيه[١٤٩].

وهذا النص يدل على أن الإمام كان يعطيها إلى الفقراء والمساكين الذين لم يلبسوا مثل هذا اللباس، فيسرون أشد السرور، ومن المؤكد أن هذا النوع من الإنفاق كان معروفاً ومعتاداً عليه الإمام حتى عوتب فيه.

---

١٤٧ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ١٩.

١٤٨ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٧٧.

١٤٥ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٧٧.

ولابد أن ننبه إلى أن طريقة الإمام في الإنفاق كانت دروساً عملية إضافة إلى كونها ناجحة في كسب قلوب الأمة، فأخلاقية الإنفاق كانت عملاً تربوياً للأمة وتوعية على ضرورة التكامل الاجتماعي، وكانت كذلك الروح التي تصاحب إنفاق الإمام من احترامه للفقراء والمحتاجين وتقبيله الفقير، وحبه أن يحضر طعامه اليتامى ومن لا حيلة له، ومناولته لهم وحمله لبيوتهم، إذا كان لهم عيال[١٥٠]. تلك الممارسات الأخلاقية التي كانت تصاحب الإنفاق تمثل صورة عملية مثالية لمبادئ الإسلام الاجتماعية.

وإن الإمام بعمله هذا يدفع العجب الذي قد ينتاب الباذلَ والمنفقَ شعوراً منه بفضله وإحسانه، ويبدده الإمام بالتأكيد على أن الفقير هو صاحب الفضل وأن اليد الآخذة للصدقة هي المحسنة لأنها سبب للثواب، وكان يرحب بالسائل ويقول (مرحباً بمن يحمل زادي للآخرة)[١٥١].

ومن أهم تلك الدروس التي أعطاها للأمة نفقة السر التي اشتهر بها عليه السلام فقد عرفت المدينة أنه هو صاحب ذلك الإنفاق الليلي، وهو المتلثم الذي كان يحمل الجراب على ظهره ويفرق الطعام والدنانير على بيوت الفقراء والمساكين.

ولم يُعرف أنه صاحب السر إلا حين موته (فعلموا أن علي بن الحسين كان يفعل ذلك)[١٥٢] وعن عائشة قولها (سمعت أهل المدينة يقولون ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي بن الحسين)[١٥٣].

واكتشاف أهل المدينة صدقة السر تثبت لنا أن الإمام كان يقوم بها كدرس عملي للآخرين، فهو لا يقلل منها قبل موته تدريجاً حتى يقطعها فلا يعرف

---

١٥٠ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ١٩.
١٥١ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٨٦.
١٥٢ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٨٦.
١٥٣ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٧٧.

صاحبها، ولا يوصي ابنه الإمام الباقر عليه السلام أن يسير بسيرته بصدقة السر لفترة بعد موته فلا يعلم بها أحد غيره ولده.

إن عدم قيام الإمام بقطع صدقة السر قبل موته وعدم وصيته لابنه بالاستمرار بها يدل على أنه كان يقصد بأن تُعلم بعد وفاته، ويسجلها في خلد الأمة درساً أخلاقياً تربوياً في الإنفاق كي يقتدي به المحسنون وتتناقلها الألسنة والأجيال. ومن تلك الأخبار مثلاً ما جاء من أنه (كان له ابن عم يأتيه بالليل متنكراً فينا وله شيئاً من الدنانير فيقول لكن علي بن الحسين لا يواصلني لا جزاه الله عني خيراً، فيسمع ذلك ويحتمل ويصبر ولا يعرفه بنفسه، فلما مات علي عليه السلام فقدها فحينئذ علم أنه هو كان. فجاءه إلى قبره وبكى عليه)[١٥٤].

١٥٤ ـ البحار جزء ٤٦ باب ٥ ـ ٦٠.

المحتويات

الفصل الرابع

الإمام والسلطة

حسين باقر حمودي

❑ من مواليد ١٩٤٨م.

❑ تخرج في كلية الهندسة بجامعة بغداد قسم الميكانيك١٩٧٢م.

❑ انخرط في الحوزة العلمية في النجف الأشرف ١٩٧٣م... وكان من أوائل المهندسين وخريجي الجامعات في العراق الذين درسوا في الحوزة العلمية بعد تخرجهم.

❑ اعتقل بعد انتصار الثورة الاسلامية ١٩٧٩م، وأُفرج عنه بعد فترة وجيزة، ثم اعتقل١٩٨٠م، وغيّب أثره.

❑ ألف كتاب ((الامام السجاد عليه السلام)) في أربعة أجزاء، وباشر بطبع الجزء الأول ((وهوالماثل بين أيدينا)) في بغداد ، أما بقية الأجزاء فتمت مصادرتها حين اعتقاله.

❑ عُرف بالمثابرة والجدية والتواضع وسعة الصدر، وكان عطوفاً شفيقاً رؤوفاً بإخوانه، حتى أضحت داره مأوى للجميع. كما حرص على تربية وتأهيل وتدريس نخبة من طلاب الدراسات الشرعية في الحوزة العلمية.

كتاب قضايا اسلامية معاصرة

سلسلة دورية تصدرها مجلة قضايا اسلامية معاصرة

رئيس التحرير: عبد الجبار الرفاعي

العنوان	المؤلف
❑ اشراقات الفلسفة السياسية	كامل الهاشمي
❑ الاجتهاد والتجديد	ابراهيم العبادي
❑ منهج الامام في التفسير	عبد السلام زين العابدين
❑ علم الكلام الجديد	محمد مجتهد شبستري
❑ المدرسة التفكيكية	محمد رضا حكيمي
❑ الامام السجاد	حسين باقر
❑ اشكالية الاسلام والحداثة	عادل عبدالمهدي
❑ اسلامية المعرفة	اسماعيل الفاروقي
❑ اصلاح الفكر الاسلامي	طه جابر العلواني
❑ جداليات الفكر الاسلامي	ابراهيم العبادي
❑ فقه التحيز	عبد الوهاب المسيري
❑ اسلمة الذات	كامل الهاشمي
❑ نظرية العلم في القرآن	غالب حسن
❑ القسط والعدل	لمحمد رضا حكيمي واخويه
❑ مقدمة في اسلامية المعرفة	طه جابر العلواني
❑ تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية	عبد الجبار الرفاعي
❑ قضايا التجديد	حسن الترابي
❑ نزعة التغريب	جلال آل احمد
❑ الدستور والبرلمان	جعفرعبد الرزاق
❑ الفكر الاسلامي: تطوراته و مساراته	زكي الميلاد
❑ علم الاستغراب	حسن حنفي
❑ الاجتهاد التحقيقي	محمد رضا حكيمي
❑ المستنيرون: خدمات وخيانات	جلال آل أحمد
❑ أصالة النبوة في حياة الرسول الكريم	غالب حسن
❑ اشكاليات التجديد	ماجد الغرباوي
❑ مقاصد الشريعة	طه جابر العلواني
❑ الثقافة الاسلامية بين التغريب والتأصيل	شلتاغ عبود
❑ الواقع والمثال في الفكر الاسلامي المعاصر	جمال الدين عطية

